أحمد القبانجي

سر الإعجاز القرآني

قراءة نقدية للموروث الديني في دائرة حقيقة المعجزة القرآنية وتأصيل للإعجاز الوجداني





سر الإعجاز القرآني



أحمد القبانجي

سر الإعجاز القرآني

قراءة نقدية للموروث الديني في دائرة حقيقة المعجزة القرآنية وتأصيل للإعجاز الوجداني



Arab Diffusion Company

سر الإعجاز القرآني

قراءة نقدية للموروث الديني في دائرة حقيقة المعجزة القرآنية وتأصيل للإعجاز الوجداني

أحمد القبانجي



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-100-X

الطبعة الأولى 2009

الفهرس

الاهداء

الى العقول الواعية...

الى طلاب الحقيقة...

فقط...

مُقَدِّمَة

عجيب أمر هؤلاء الناس...

وأعجب منهم بعض الأصحاب والأخوة من رجال الدين الذين «فُرض عليهم» أن يخاطبوا الآخرين بلغة الرحمة والشفقة ويوقظوا فيهم روح الإيمان ويحركوا في نفوسهم عناصر الخير والصلاح، وإذا بهم «يفرضون» أنفسهم شرطة على العقيدة والدين، ويخاطبون الناس بلغة الاتهام والزندقة وينزعون إلى تقديس كل ما هو قديم وفق اطار ما ضوي دوغماتي...

رأيته بالامس فسلمت عليه، فردّ السلام باقتضاب وتبرّم، فشعرت بأنه ليس على ما يرام. ولما لم يكن من عادته هذا الخلق الجاف استفسرت منه حقيقة الحال وقلت له: لم أعهد منك التعامل بهذا الأسلوب الفوقي من قبل، فما عدا مما بدا؟

قال: لأنك تقول بأن القرآن كلّه أباطيل وكلام فارغ و...

فتعوذت بالله من هذا الكلام، وقلت له: متى عهدتني أتكلم بمثل هذا الكلام؟

قال: لأنك تقول بأن القرآن ليس بمعجزة، وهذا يعني أنّه ليس من الله، بل من النبي ﷺ، وبالتالي فكل ما فيه باطل وكذب...

تعجبت واقعاً من هذا الاستنتاج المنطقي!! وتذكرت أنّه سبق

لي أن تحدثت معه حول الاعجاز القرآني وأنكرت أن يكون القرآن معجزة بلاغية أو علمية كما يدعي المفسرون وعلماء الكلام، ولكنه معجزة من نوع آخر... فقلت له:

- يا عزيزي، هب أني أقول بأن القرآن ليس بمعجزة، فما علاقة ذلك بانكار أن يكون من الله تعالى؟ ألا يمكن قبول كلام النبي الصادق الامين ﷺ في أن هذا كلام الله والايمان بهذا الخبر الصادق من دون أن يكون القرآن معجزاً؟

ثم إنني أقول بأن القرآن معجزة الهية، ولكن لا على أساس الوجوه الواهية المذكورة للاعجاز القرآني في الموروث الديني، بل هو معجزة من نوع آخر.

فسكت هنيئة، ثم قال: ولكنك تتعرض للعلماء والفقهاء بالنقد والتجريح، وكل ما لدينا من الدين انما هو ببركتهم وجهودهم وأتعابهم، ومن شأن أسلوبك هذا ابعاد الناس عن العلماء ونفخ روح الجرأة والتعالي في نفوس العوام والمثقفين قبال الدين وعلماء الدين....

قلت: يا أخي، هذا موضوع آخر لا يرتبط بكلامنا..

قال: كلّا، إن له ارتباط تام في الموضوع، فعندما تأتي بنظرية جديدة، فهذا يعني تخطئة جميع العلماء وتعريتهم وتسقيط مكانتهم وشخصيتهم في انظار الناس، ونحن مكلّفون بالدفاع عن الحوزة والعلماء والردّ على تخرصات المناوئين والاعداء الذين يحاولون التنقيص من العلماء ورجال الدين وبالتالي ابعاد الناس عن الإسلام والمذهب.

فتحيرت بماذا أجيب هذا الأخ المؤمن، وأراه يخلط بين نقد الفكر ونقد الشخصية، . . .

بين الفكر الديني والدين نفسه. . .

بين طلب الحقيقة والمنهج البراجماتي في الحوار الثقافي والديني، ورأيت أن هذا هو واقعنا المتخلّف حيث يتحرك الواحد منا من موقع الحساسية المذهبية التي لا تطيق النقد والحوار، فيدخل الفكر مرحلة التقية، ويتراجع دور العقل، وتنعدم ادوات الاجتهاد الحر، ونعيش بالتالي الأرهاب الفكري والديني الذي يساهم في عملية انقراض معالم الدين واضمحلال أصوله، وهووضع يدعو للحزن والأسف، فبدلاً أن تكون الحوزة العلمية في قم المقدسة مركز الاشعاع الحضاري والفكري إلى العالم، ويتحرك اربابها لرصد البؤر والتواترات الفكرية والتعقيدات الايديولوجية الراهنة وتقديم اجوبة شافية لعلامات الاستفهام المتلاحقة تبعاً للتحولات المتسارعة لمتطلبات الواقع، نجد أن الجو السائد على غير هذا المسلك، فالمناخ الفكري لا يسمح باستيقاظ روح الابداع ولا يشخص مواضع الخلل، بل يستهلك جهد العقل في شؤون الماضي ويضفي على الموروث الديني والفقهي طابعاً مطلقاً تجعله معبّراً عن العقيدة الحقة التي لا يجوز المساس بها ولا الدنو منها من موقع النقد والنقاش!! وان كان هناك نقد وحوار، فهو نقد متسم بالحيطة والحذر خشية الاتهام بالمروق والانحراف والارتداد. . . ومثل هذا النقد يكون أعجز من أن يتولى إثارة الوعي أو زحزحة الفكر من مواقعه المألوفة واقحامه في آفاق جديدة.

تحيرت بمَ أُجيب هذا الأخ والمنطلقات الفكرية بيننا متباعدة ومتباينة، وأخيراً قلت له:

- يا عزيزي، ليس كما ذهبت، فالنقد والردّ والنقاش في دائرة الفقه الشيعي هو الذي عمل على ترشيد مسار الفقه وتقوية اصوله وانعاش فروعه بحيث صرنا نتباهى ونفتخر بهذا العطاء الزاخر لعلمائنا وفقهائنا في ظل حركة الاجتهاد، واليوم نحن بأمسّ الحاجة إلى فتح باب الاجتهاد في العقائد أيضاً، فلا يكفي أن نقول في كتبنا العقائدية أن المكلف يجب عليه أن يؤسس لوعي عقائدي على أساس العقل، ويأخذ بمفردات العقيدة من موقع الدليل العقلي، ولكن من جهة أخرى نحمل فوق رأسه سيف الاتهام ونتعامل معه بلغة التهديد إن خطر على ذهنه غير ما هو مأثور في كتب العقائد وما هو متسالم عليه بين العلماء، فهل يصون هذا المنهج السلفي عقيدة المسلم من الانحراف أو الذبول؟

هل بامكاننا بعد هذا أن نتحرك في عملية تجسير العلاقة بين متطلبات العقيدة وتحديات الواقع ومنزلقاته الفكرية وما يتراءى في الأفق من زوبعة عقائدية تطال الشباب المثقف من دون الاستعداد لها على مستوى تعميق الفكر وتنضيج الرؤى وتوسيع الثقافة؟

هنا يأتي دور النقد...

فالنقد يا حبيبي لا يعني تجريح شخصية الآخر والتعامل مع المؤسسة الدينية من موقع الهدم والتخريب والنقض، بل هو حركة الفكر نحو ازاحة ما تراكم من غبار الماضي وعلاقاته وظروفة على عقائدنا الدينية..

النقد في دائرة العقيدة يعني تفكيك التراث الديني إلى عناصره الأولية ليتسنى لنا اعادة صياغته بما يضمن لنا مواجهة التحديات الفكرية الراهنة بادوات فاعلة تحكي رصانة المنهج وحقانية المعتقد. . .

قد يستغل عنصر النقد من لا حريجة له في الدين ويسعى في هدم عرى الإيمان والدين وفق اطار تغريبي مدروس من شأنه تقويض البنى الفكرية للذهنية المسلمة، ولكن هل يكون ذلك مسوغاً لنا لنتجمد في اطار معتقدات السلف ونظل نمارس عملية تغطية ثقافية وتعتيم فكري على ترسبات عقائدية لتبقى متعالية عن النقد الموضوعي؟

وأظن أن صاحبي لم ترق له هذه الثرثرة الحالمة، وضاق بها ذرعاً، فآثر الانصراف على ادامة الحوار. .

وقد رأيت أن أقدم بين يدي القاريء الكريم ذلك النقد الموضوعي لمقولة الإعجاز القرآني ليقف بنفسه على تفاصيل المسألة ويتعامل مع التراث من موقع المسؤولية الرسالية لا من موضع الذات والحساسية المذهبية.

أحمد القبانچي

الفصل الأول

المعجزة بنظرة عامة

- المعجزة في اللغة والاصطلاح.
- المعجزة فعل الله أو فعل النبي.
- المعجزة ونقض القوانين الطبيعية.
- ضرورة المعجزة للنبي.

المعجزة بنظرة عامة

قبل الحديث عن حقيقة المعجزة القرآنية ومناقشة الموروث الديني ومسطورات العلماء والمفسّرين في هذا الباب، نرى من اللازم استعراض بعض التعقيدات المعرفية في هذه الظاهرة العجيبة في الواقع التاريخي للبشرية واماطة اللثام عن ملامحها وخلفياتها وما يتصل بالتحديات الكلامية وعلامات الاستفهام التي تثار حولها...

فماذا تعني المعجزة؟

وهل أنّها من فعل الله أو فعل النبي؟

وكيف نوفق بينها وبين نواميس الطبيعة وقانون العلية؟

وهل يجب عقلاً على مدّعي النبوة الإتيان بمعجزة لاثبات اتصاله بعالم الغيب؟

وما هي علاقة القدرة على خرق نواميس الطبيعة وصحة مدعيات النبي ومعطيات العقيدة؟

هذه بعض ما يلوح في افق الذهن من اسئلة وعلامات استفهام حول هذه المفردة العقائدية المهمة التي لا زالت تحتل مكانها المتميز في مسائل علم الكلام القديم والجديد على السواء، وسنحاول استعراض أهم ما قيل أو ما يمكن أن يقال في معرض الاجابة الوافية عن هذه الأسئلة مع الاختصار مهما أمكن.

المعجزة في اللغة والاصطلاح

لم يرد لفظ «المعجزة» أو «المعجز» بالمعنى السائد لدى المتكلمين في الآيات القرآنية، بل ورد التعبير عنها بكلمة «آية» بمعنى العلامة التي يأتي بها النبي لاثبات صدق دعواه في اتصاله بعالم الغيب وحقانية الرسالة، وبالتالي فمن اللوازم القهرية لهذه «الآية» عجز الناس عن الإتيان بمثلها، والّا لما كانت آية على اتصال هذا المدعي للنبوة بالقدرة الإلهية المطلقة.

أما أصلها اللغوي، فالمعجزة أو المعجز من مادة «عَجُز» كما يقول الراغب في مفرداته: «بمعنى مؤخرة الإنسان وبه شُبّه مؤخّر غيره، قال تعالى: «كأنهم أعجاز نخل خاوية» والعَجْز: أصله التأخير عن الشيء وحصوله عن «عَجُز الأمر» أي مؤخّره كما ذكر في الدُّبر، وصار في المتعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وضده القدرة، قال: «أعجزت أن اكون» وأعجزت فلاناً وعجّزته وعاجزته: جعلته عاجزاً، قال: «واعلموا انكم غير معجزي الله...»[1].

أما في الاصطلاح، فقد ذكر في تعريف المعجزة أن: «**المعجز هو الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى المقرون بالتحدي المتعذّر على الخلق**»[2].

---

(1) انظر: مفردات القرآن للراغب الاصفهاني ص 334 - ولسان العرب لابن المنظور 90/ 58 - 60، ومجمع البحرين للطريحي، 4/ 24 - 25.

(2) المقداد بن عبد الله السيوري - شرح الباب الحادي عشر للعلامة الحلي - ط (1) ، طهران.

وذكر السيد الخوئي في «البيان» في تعريف المعجزة:

«أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه»[1].

ولدى التنقيب والبحث في مضمون التعريف الاصطلاحي للمعجزة تتجلى لنا الركائز التي تقوم عليها المعجزة، أو بعبارة أخرى: الشروط التي يجب توفرها في عمل معين ليدخل في اطار مصداق المعجزة، وهي:

1 - أن يكون ذلك العمل الاعجازي خارقاً للعادة في عالم الطبيعة ولا يقوم على ما هو المعروف من علاقات السببية، من قبيل انقلاب العصا إلى ثعبان في معجزة موسى عليه السلام، أو إحياء الموتى لعيسى، أو صيرورة النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام.

وهنا نقطة مهمة لابد من الفات النظر إليها، وهي أن الأمر الخارق للعادة أو الخارق لنواميس الطبيعة كما ورد في التعريف لا يعني مخالفته لقوانين العقل والمنطق، وبهذا تخرج المعجزة من دائرة المحالات العقلية كاستحالة اجتماع النقيضين وتدخل دائرة المحالات العادية والعلمية.

وللتوضيح نقول: إن المحالات ثلاث: منطقية، وعلمية، وعرفية «الأول» منها مثل اجتماع النقيضين أو كون الجزء أكبر من الكل أو وجود مثلث ذي أربعة أضلاع، و«الثاني»: عدم ترتب المعلول على علته المعروفة كعدم احراق النار لبدن الإنسان مع عدم وجود المانع الطبيعي، أو ولادة ابن من غير أب، أو انقلاب

(1) السيد أبو القاسم الخوئي - البيان، ص 33 - دار الزهراء بيروت.

العصا إلى ثعبان، فمعلوم أن مثل هذه الامور لا تستلزم المحال المنطقي، أي أن العقل لا يحكم باستحالتها بالذات، بل لما جرت عليه القوانين الطبيعية من ترتب المعلول الطبيعي على علته الطبيعية، و«الثالث» مالم يتعارف حصوله في حياة البشر، مثل بقاء الإنسان حياً بدون غذاء وماء لمدة عشرة ايام، أو سقوط طائرة من شاهق وموت جميع الركاب ما عدا طفل واحد، أو شفاء مريض من مرض السرطان ببركة الدعاء وامثال ذلك، فمثل هذه الموارد قد لا تتقاطع مع قانون العلية وبالتالي لا تكون محالاً علمياً، ولكنها تعدّ محالاً في العرف والعادة.

«المعجز» حسب التعريف المتقدم ليست من المحالات المنطقية، وبالتالي لا معنى للجزم باستحالة وقوعها ودعوى مخالفتها للعقل كما أُثر ذلك عن الماديين، بل وقوعها ممكن منطقياً.

ونلفت النظر إلى أن «خرق العادة» الوارد في التعريف الاول يختلف مبنائياً عن «خرق النواميس الطبيعية» الوارد في التعريف الثاني، والأشاعرة واهل السنة يذهبون إلى الأول، بينما يذهب جلّ الشيعة إلى الثاني، وهذا الاختلاف في التعريف يمتد إلى مبنى كل من الفريقين في تصوره عن قانون العلية، فالأشاعرة - كما سيأتي - ذهبوا إلى عدم وجود قانون العلية في الطبيعة، وما نجده من أسباب ومسببات في الظواهر الطبيعية هي في الحقيقة «عادة الله» في خلقه بأن يجري المعلول بعد العلة مباشرة، ولذلك كانت المعجزة «خرق العادة» أي عادة الله. أما «الشيعة» فيرون أن قانون العلية له موضوعية في الواقع الخارجي، والمعجزة تمثل «خرقاً لقانون الطبيعة» كما رأينا في تعريف السيد الخوئي (قدس سره).

2 - أن يكون المعجز مقروناً بالتحدي، حيث يتحدى المدعي للنبوة الناس لمقابلته بالمثل، فلا يكفي الإتيان بما هو خارق للعادة فقط.

ومن هنا يتبين أن بعض خوارق العادات الصادرة من الأنبياء والأولياء لا تعدّ معجزة بحدّ ذاتها لكونها غير مقرونة بالتحدي مثل اتيان «آصف بن برخيا» بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين بلمح البصر، أو نجاة إبراهيم من النار وإن توهم الكثير أنّها معجزة لإبراهيم، بل هي كرامة من الله لإبراهيم، الغرض منها حفظ إبراهيم ودفع الموت عنه لا أنّها معجزة بالمعنى المتقدم، فلم يكن إبراهيم في مقام التحدي حينذاك.

3 - أن تقع المعجزة نافعة للناس وتجسد الرحمة الإلهية من قبيل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى، أو ناقة صالح، أو معجزة نبينا الكريم ﷺ وهي القرآن، ولا أقل أن لا تكون ضارة بحيث تفضي إلى تنفّر الناس من النبي ومن الرسالة السماوية، فمن يستطيع أن يفرق بين الزوجين بسحره أو يقضي على خيرات الطرف الآخر بحسده لا يعد ذلك معجزة حتى وان كانت من الخوارق واقترنت بالتحدي، لأن اصل النبوة لطف من الله تعالى للبشر والمعجزة أداتها ولا يصح التوصل إلى الخير بأدوات الشر، وهذا هو ما ورد في التعريف بلزوم كون المعجزة «مطابقة للدعوى» فالرسالات السماوية كلها خير وبركة للناس وصادرة من ساحة اللطف الإلهي، فلابد أن تكون المعجزة منسجمة مع هذا الغرض الالهي.

4 - الخصوصية الاخرى التي يجب توفرها في المعجزة هي

أن تكون بحيث «يعجز الغير عن الإتيان بمثلها»، فلو كان الفعل خارقاً لنواميس الطبيعة، وكان المدعي في مقام التحدي، وكان الفعل مطابقاً للدعوى، الّا أن هناك من له القدرة على الإتيان بمثلها من دون أن يدعي مقام السفارة والنبوة، لما كانت هذه المعجزة دليلاً على صدق المدعي.

وهذا المعنى يتوقف على المبنى الفلسفي لمقولة ألحسن والقبح لدى العقليين من المعتزلة والشيعة حيث يقال بأن العقل يحكم بقبح إظهار المعجزة على يد الكاذب، أما لو لم يحكم العقل بذلك كما هو رأي «الاشاعرة» فمن الممكن أن يؤيد الله تعالى الكاذب ويظهر المعجزة على يده، وحينئذ يتساوى الصادق والكاذب في القدرة على الإتيان بالمعجزة. وتسقط المعجزة عن كونها حجة يحتج بها النبي لاثبات صدق دعواه.

مناقشة التعريف

الاشكال المهم الذي يرد على هذا التعريف - بكلا صياغتيه - هو عدم كفاية أن يكون الفعل الإعجازي بحيث يعجز عنه جميع أفراد البشر، وذلك لأن في كل فنّ وصنعة هناك من يقدر على الإتيان بما لا يستطيع الآخرون اتيانه، ففي الشعر مثلاً قد يأتي أحد الشعراء بقصيدة تكون أعلى من جميع القصائد من حيث الفصاحة والجمال الأدبي والذوق الفني، وهكذا في الرسم والنحت والقصة وباقي الفنون الأدبية البشرية، ولكن هل يعني هذا أن هؤلاء جاؤوا بمعجزة؟ كلّا طبعاً، فمجرد أن يكون الفعل بحيث لا يستطيع الاخرون الإتيان بمثله لا يعد معجزة بحدّ ذاته، بل لابدّ من ضميمة

أخرى لهذا التعريف للمعجزة، وهي أن يكون الفعل خارجاً عن مقدور البشر أيضاً، ففرق بين أن يكون الفعل يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله لأنه بلغ نهاية الحسن والحدّ الأعلى من المهارة، وبين ما يعجز عنه الاخرون لأنه ليس من البشر أساساً.

ولذلك عدل الشهيد المطهري في تعريف المعجزة إلى أنّها: «الفعل الصادر من النبي لإثبات مدعاه، أي يأتي به في مقام التحدّي ويكون بشكل يظهر منه أنّه صادر من قدرة غيبية فوق قدرة البشر بشكل عام»[1].

وهذا التعريف وان كان أفضل من التعريف القديم ويصحح الخلل الذي أورده الاشكال المذكور، إلّا أنّه لا يخلو من خلل أيضاً، ولا يمكنه أن يكون وافياً بالمقصود من المعجزة، فالمقصود من المعجزة إثبات أن هذا الفعل من الله تعالى لا مجرد كونه من قدرة غيبية فوق قدرة البشر، فلا يخفى أن الجنّ يتمتعون بقدرة فوق قدرة البشر أيضاً كما يحدثنا القرآن الكريم عنهم في قصة سليمان وعرش ملكة سبأ، وأعلى منها قدرة الملائكة وخاصة جبرئيل الذي يقول عنه القرآن: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[2]، وعليه هل يكفي أن يكون الفعل خارجاً عن القدرة البشرية فقط، أو لابد من ضمّ مفهوم آخر، وهو أن يوحي هذا الفعل بصدوره من الله تعالى أيضاً؟ ونرى أن الأفضل في التعريف أن يقال بأن المعجزة هي:

«الفعل الالهي المباشر لتصديق النبي في مقام التحدي».

---

(1) المطهري - النبوة - ص 102 - 103 - انتشارات صدرا - ط 1.
(2) سورة التكوير، الآية: 20.

فأفعال الله على نحوين: مباشر وغير مباشر، فكل ما نراه من حوادث وظواهر في عالم الطبيعة هي من فعل الله ولكن بصورة غير مباشرة أي من خلال الاسباب والمسببات، إلّا المعجزة فهي فعل الله مباشرة لإثبات حقانية النبي والرسالة السماوية.

المعجزة، فعل الله أو فعل النبي

ومن الأبحاث التي يذكرها العلماء في هذا الباب - والتي لا نجد لها كثير فائدة على مستوى العقيدة - هو البحث عن مصدر المعجزة فهل أنّها فعل الله مباشرة وقد أجراه على يد النبي كما تقول به الاشاعرة بحيث لا يكون للنبي دور فيها سوى تهيئة المقدمات مثل القاء العصا في معجزة موسى، أو النفخ في الميت أو الطين لإحيائه في معجزة عيسى، أو أنّها فعل النبي وبارادته وقدرته الروحية، ولكن باذن الله، لأن كل فعل وحركة في عالم الوجود لا يمكن أن توجد وتتحقق إلّا باذن الله؟ وهذا لا يعني الشرك كما توهم الأشاعرة. حيث لا أحد من القائلين بالقول الثاني يرون أن الأنبياء جاءوا بالمعجزات بقدرة مستقلة عن القدرة الإلهية حتى يستلزم الشرك، بل بالقدرة التي جعلها الله فيهم وفوّضها اليهم، وإلّا فحتى المقدمات من قبيل القاء العصا أو النفخ تكون من مقولة الشرك فيما لو قلنا بأن الأنبياء فعلوها بالاستقلال، ويتساوى في ذلك الافعال الصغيرة والكبيرة.

ويستدل للقول الأول - مضافاً لما مرّ من توهّم الشرك فيما لو قيل بأن المعجزة من فعل النبي - بالآيات الكريمة الصريحة بأن المعجزة من فعل الله ونسبتها إلى الله تعالى «آياتنا» «ناقة الله» وأمثال ذلك.

ثم لو أن المعجزة من فعل النبي فلماذا هرب موسى من الثعبان في أول الأمر:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ﴾(1).

واستدلوا للقول الثاني بالآيات أيضاً، وفيها نسبة المعجزة إلى النبي بإذن الله من قبيل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾(2).

وقول المسيح:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ﴾(3).

والتحقيق أن كلاً من القولين قد أصاب جزء الحقيقة لا كلّها، فلا يمكن القول بأن النبي لا دخل له بتاتاً في تحقق المعجزة في الخارج وليس له إلّاترتيب المقدمات لأن ذلك يعني تفريغ روح النبي من أية جدارة معنوية للقيام بمثل هذه الاعمال والحال أن من هو دونه من البشر يستطيعون الإتيان بخوارق العادات كما يحكي لنا القرآن عن «آصف بن برخيا» وزير سليمان الذي كان عنده علم من الكتاب وجاء بعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس بطرفة عين:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾(4).

(1) سورة النمل، الآية: 10.
(2) سورة الرعد، الآية: 38.
(3) سورة آل عمران، الآية: 49.
(4) سورة النمل، الآية: 40.

وهذا هو الذي حدا بأصحاب القول الثاني إلى نسبة المعجزات للأنبياء وقدرتهم المعنوية على التصرف في الاشياء، ولكن هذا القول بدوره لا يمكن المساعدة عليه، لأن أصحاب الكرامات من سائر البشر كبعض المتصوفة والمرتاضين انما استطاعوا الإتيان بالخوارق لتمرّنهم الكثير ورياضتهم لأنفسهم في ما سبق، ولم يعهد من الأنبياء أنهم كانوا كذلك، بل إن الشرط الاكيد الذي يشترطه علماء الكلام في المعجزة هو أن لا تكون عن تمرين سابق فتكون اكتسابية حينئذ وتشتبه مع السحر والكهانة وأمثالها، فالمعجزة يجب أن تكون من الامور الموهوبة من الله تعالى، ويؤيد ذلك ما تقدم من فرار موسى من عصاه حينما تحوّلت إلى ثعبان، وكذلك بالنسبة إلى معجزة نبي الإسلام، وهي القرآن الكريم، فلا يقول أحد بصحة نسبتها إلى النبي نفسه بإذن الله.

وتفسير ما اشتبه على البعض من أمر المعجزة هو أن النبي لا شك في وصوله إلى أرقى مدارج الكمال المعنوي ومراتب القرب من الله تعالى، فنفسه الشريفة مستعدة لتقبّل المواهب الإلهية والعملية ومنها خوارق العادات من دون حاجة لتمرين سابق ورياضة نفسانية، إلّا أن ذلك لا يعني أن المعجزة من فعله، وفرقه عن السحرة والمرتاضين أن هؤلاء يقومون بالأعمال الخارقة لقوة نفوسهم وعلمهم الأكيد بقدرتهم عليها من خلال تجاربهم وما روّضوا عليه نفوسهم، ولكن الأنبياء جاءوا من طريق آخر وحصلوا على مثل هذا العلم الأكيد بتقرّبهم إلى الله تعالى وصفاء نفوسهم بحيث كانوا يعلمون أنهم إذا دعوا الله تعالى في شيء فان الله لا يرد لهم طلباً، وبهذه الصورة تتحقق المعجزة، وتكون حينئذ من

فعل الله الذي أجراه على يد عبده ونبيّه كما في القول الأول، ولا يثلم ذلك شيئاً من المقام المعنوي والقدرة الروحية للنبي كما توهم أصحاب القول الثاني.

المعجزة ونقض القوانين الطبيعية

أما بالنسبة إلى السؤال عن كيفية وقوع المعجزة مع مخالفتها للقوانين الطبيعية الحاكمة على ظواهر الحياة بأجمعها، وهل يعقل وقوع مثل هذه الحوادث في منظور العلوم الحديثة، أم لا؟

هناك عدة نظريات في تفسير وقوع المعجزة، وأهمها ثلاثة:

1 - نظرية الأشاعرة

وتقوم هذه النظرية على أساس انكار قانون العلية بمدلوله الواقعي من الأساس، واستبداله بمقولة «عادة الله»، أي أن الله تعالى هو الذي جعل ظاهرة التتابع بين العلّة والمعلول في القضايا الطبيعية بحيث انتزع الذهن أن الأول علة للثاني، وإلّا ففي الحقيقة أن لا علة ولا معلول في البين، وكل ما هناك هو إرادة الله، وعلى هذا لا تكون المعجزة مخالفة للقوانين الطبيعية، لأنها ليست حتمية من الأساس كما هو الحال في القوانين الرياضية والمنطقية، ففرق بين القوانين الطبيعية وبين القوانين الرياضية والمنطقية، فالقوانين من النحو الثاني لا يتعقل العقل البشري خلافها اطلاقاً، أي أنّها مقرونة دائماً بالضرورة والحتمية كقانون استحالة اجتماع النقيضين. أو أن 1 + 1 = 2، أما القوانين الطبيعية من قبيل: تمدد الحديد بالحرارة، أو غليان الماء في درجة المائة فهي ليست من هذا القبيل، ولا يستلزم وقوع خلافها محالاً عقلياً، غاية الأمر أن العقل

ومن خلال مشاهداته المتكررة رأى بأن الحديد يتمدد بالحرارة، فحكم بوجود هذا القانون، وقد يرى خلافه أيضاً مثل انبساط الماء بالبرودة وصيرورته ثلجاً، فقبل مشاهدة مثل هذه الحوادث لم يكن لدى العقل البشري أي حكم على الظواهر الطبيعية، بخلاف القوانين الرياضية والمنطقية التي لا تعتمد في إثبات صحتها على المشاهدة والتجربة، فالعقل يحكم بأن الكل أكبر من الجزء حتماً حتى ولو لم يكن هناك جزء وكل في الخارج، أي أن القضايا المنطقية والرياضية من مقولة القضايا الحقيقية التي قياساتها معها سواء وجدت في الخارج أو لم توجد.

وعلى أية حال، فالمعجزة لا تعدّ خرقاً للقانون الحتمي حتى يكون مثاراً للاشكال، فكما أن القوانين الاعتبارية في السياسة والقضاء والحكومة وعلائم المرور وامثال ذلك يمكن تغييرها بسهولة دون أن يستلزم ذلك خرقاً لقانون العقل، لأن القوانين الاعتبارية من وضع البشر والاعتبار سهل المؤونة كما يقول الفقهاء، فكذلك القوانين الطبيعية بالنسبة إلى الله تعالى فكلها اعتبارية بالنسبة له ولإرادته المطلقة، فهو اعتبر أن الحديد يتمدد بالحرارة، وأن النار محرقة، وأن الطائر يطير إذا حَرّك جناحيه وهكذا من دون أن تكون علة حقيقية في البين غير إرادته المطلقة، فلو أراد يوماً أن تكون النار باردة لتحقق ذلك كما في نار إبراهيم من دون أن يستلزم ذلك نقضاً لقوانين حتمية لدى العقل البشري.
وفي ذلك يقول «الغزالي» من رموز الأشاعرة: «وانما يلزم النزاع في الأولى (اصل السببية) من حيث إنه يبتني عليها اثبات

المعجزات الخارقة للمادة من قلب العصا ثعباناً واحياء الموتى وشق القمر، ومن جعل مجرى العادات لازمة لزوماً ضرورياً أحال جميع ذلك»[1].

ومن العلماء المعاصرين الذين يرون هذا الرأي أيضاً هو الشهيد الصدر، حيث يرى في تفسير المعجزة - بما يؤيد وجهة النظر هذه، ويقول:

«والحقيقة أن المعجزة بمفهومها الديني قد أصبحت في ضوء المنطق العلمي الحديث مفهومة بدرجة اكبر فما كانت عليه في ظل وجهة النظر الكلاسيكية إلى علاقات السببية فقد كانت وجهة النظر القديمة تفترض أن كل ظاهرتين اطّرد اقتران احداهما بالأخرى، فالعلاقة بينهما علاقة ضرورة، والضرورة تعني أن من المستحيل أن تنفصل احدى الظاهرتين عن الأخرى.

ولكن هذه العلاقة تحوّلت في منطق العلم الحديث إلى قانون الاقتران أو التتابع المطّرد بين الظاهرتين دون افتراض تلك الضرورة الغيبية.

وأما على ضوء الاسس المنطقية للاستقراء فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمية الحديثة في أن الاستقراء لا يبرهن على علاقة الضرورة بين الظاهرتين، ولكننا نرى أنّه يدلّ على وجود تفسير مشترك لإطّراد التقارن أو التعاقب بين الظاهرتين باستمرار، وهذا التفسير كما يمكن صياغته على أساس افتراض الضرورة الذاتية، كذلك يمكن صياغته على أساس افتراض حكمة دعت منظّم الكون

(1) الإمام الغزالي - تهافت الفلاسفة - المسألة 16 - ص 236.

إلى ربط ظواهر معينة بظواهر أخرى باستمرار، وهذه الحكمة نفسها تدعو أحياناً إلى الاستثناء فتحدث المعجزة»[1].

2 - نظرية بعض المثقفين

وتعتمد بالاساس على تأويل ما ورد في الكتاب العزيز من صدور المعجزات بما يتوافق مع افتراض وجود ضرورة حتمية بين العلّة والمعلول لا يعقل معه انفكاكهما، وعلى هذا الأساس نلاحظ في كتابات هؤلاء المثقفين الميل الشديد إلى تفسير المعجزات بظواهر طبيعية لا تخدش في حتمية القوانين الطبيعية، ومن ذلك تفسيرهم لما حدث لإبرهة والطير الابابيل بمرض الطاعون، وناقة صالح بأنها ناقة عادية سوى أنّها كثيرة اللبن وانكار خروجها من الجبل وما إلى ذلك من الخوارق المذكورة لهذه المعجزة، وقضية إبراء عيسى للأعمى والأصم والمرضى بأنه نوع من الهيبنوتيزم واستخدام العلاج النفساني في مثل هذه الحالات لا اكثر، وقد أيّد العلم الحديث هذا الأسلوب في شفاء كثير من المرضى .. الخ.

ويذهب غالبية هؤلاء المثقفين إلى ضرورة قراءة النصوص الدينية المقدسة باستخدام قواعد علم «الهرمينوطيقيا» وتفسير المتون القرآنية التي لا تتوافق مع العلم والعقل من قبيل المعجزات على أساس قواعد هذا العلم بحيث لا تكون المعاني الظاهرة من الايات هي المقصودة بالافهام في عملية الخطاب، بل هناك مقاصد معرفية وحقائق غيبية هي المقصودة بالدرجة الأولى، ومن هؤلاء سيد

(1) محمد باقر الصدر - بحث حول المهدي - ص 36 - 38 - دار التعارف للمطبوعات - بيروت.

أحمد خان الهندي [1]، وشاه ولي الله دهلوي [2] من المسلمين، ومن علماء الغرب نذكر «توماس ولستون» الذي يؤكد أن مسألة شفاء عيسى للأمراض المزمنة في الحقيقة عملية تلقين وايحاء لا أكثر، وكذلك «ايان باربو» الذي يذهب إلى أن مسألة انشطار البحر لموسى هي عبارة عن ظاهرة المدّ والجزر.

ولكن من الواضح أنّه مع قبول مثل هذه التفسيرات لبعض المعاجز، إلّا أنّه تبقى هناك الكثير من المعجزات لا تقبل التأويل والتفسير وفق القوانين الطبيعية من قبيل انقلاب العصى إلى ثعبان أو إحياء الموتى لعيسى، ولذلك لا يمكن قبول مثل هذه النظرية اطلاقاً.

3 - نظرية الحكماء

الحكماء المسلمون لم يقبلوا بكلا النظريتين المتقدمتين، حيث أوردوا على الأولى منهما بأن المشكلة التي تعترض التصديق بالمعجزة لا تنحل بارجاع ظاهرة العلّية إلى مجرد الاقتران الدائم، وبالتالي يقال بأن نقض مثل هذا التقارن لا يمثل مشكلة في دائرة العقل، فالمشكلة فلسفية قبل أن تكون علمية، والعلية في التفسير الفلسفي هي قضية ضرورة لا ديمومة، أي أن العلاقة بين العلة والمعلول هي علاقة ضرورية لا دائمية، ومعه لا يقال بأن انفساخ الدوام لا يشكل محذوراً عقلياً.

إذا اتضح هذا المعنى نأتي إلى قضية المعجزة وتفسير مخالفتها

(1) انظر: تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان - القسم الأول - ص 110 - 132.
(2) انظر: التفهيمات الإلهية: ج 1 - ص 6 و25 و110 - ج 2 - ص 65.

للقوانين الطبيعية، وفي ذلك يقول الفلاسفة ومنهم الطباطبائي في ميزانه أن المعجزة لا تعني نقضاً للقوانين الطبيعية إطلاقاً، بل إن ما فهمه البشر من القوانين الطبيعية قد لا يكون صحيحاً وكاملاً، وقد يغفل عن بعض زوايا القانون الطبيعي ويتصور ما ليس بعلّة علّة، والمعجزة عبارة عن استخدام صحيح للعلل والأسباب في عالم الوجود، أو بعبارة أخرى: الاستفادة من قوانين أعلى وأشمل من القوانين المعروفة لدى البشر. وفي ذلك يقول السيد الطباطبائي:

«فقد تبين من الفصول السابقة من البحث أن المعجزة كسائر الامور الخارقة للعادة لا تفارق الاسباب العادية في الاحتياج إلى سبب طبيعي وأن مع الجميع أسباباً باطنية والمعجزات مستندة إلى سبب طبيعي حقيقي باذن الله وأمره»[1]. وعلى سبيل المثال ما نشاهد في الطب النفسي وحكومة قوانين هذا اللون من الطب على قوانين الطب البدني، فكثيراً ما يعالج الطبيب البدني المريض بأفضل أنواع العلاج ولكنه لا يفلح في شفاء المريض بينما يستطيع الطبيب النفساني معالجته بطرق أخرى، وهذا لا يعني أن الطبيب النفساني خرق قوانين الطب البدني طبعاً، ولكنه تناول الموضوع من زاوية أخرى غفل عنها الطبيب البدني. وهكذا الحال في القوانين الاعتبارية المعمول بها في الدول والحكومات أو ما نجده في الفقه كذلك من قواعد وقوانين تكون بعضها حاكمة على البعض الآخر ولا يستلزم عدم العمل بالقوانين المحكومة نقضها، فقاعدة «لا ضرر» حاكمة على كثير من القواعد والأحكام الاولية، فمن

---

(1) الطباطبائي: الميزان - ج 1 - ص 82.

شرب الخمر اضطراراً لا يعني أنّه نقض قانون حرمة شرب الخمر، بل عمل بقانون أوسع منه يبيح له شرب الخمر في حالات الاضطرار، وهكذا الحال في ما نحن فيه، فالمعجزة بدورها خاضعة لقوانين الطبيعة، ولكن البشر قد يغفل عن بعض أركان القانون الطبيعي أو لا يعلم بقوانين أعلى منها.

4 - وهي النظرية المختارة في تصوير وقوع المعجزات على خلاف قوانين الطبيعة وذهب إليها غير واحد من المحققين، وتتلخص هذه النظرية في أن المعجزة لا تنقض قانون العلية الثابت في العقل كما توهمه المنكرون، ولا تنزل بالمعجزة إلى دائرة العلل والأسباب الطبيعية كما قرأنا آنفاً في رأي بعض الحكماء، بل كما ذكرنا في كتاب «التوحيد والشهود الوجداني»[1] من التفصيل بين قانون العلية في الطبيعة والذي يقوم على أساس توفر المعدّات لايجاد المعلول، وبين قانون العلية الفلسفي الذي يؤكد على العلل الايجادية في الحقيقة، والمعجزة تعدّ استثناءً لقانون العلية العلمي لا الفلسفي، ايّ تعدّ نقضاً لقانون الطبيعة في لزوم ترتب معلول معين على علّة طبيعية معينة، لا لقانون العلية في اطاره العقلي الفلسفي، لأنه من الواضح انه لا أحد يقول بحدوث المعجزات بدون علة. وانما هي خاضعة لهذا القانون أيضاً، غاية الامر أنّها معلولة للإرادة الإلهية المتعالية على ناموس الطبيعة، والإرادة الإلهية حاكمة على قوانين الطبيعة، وهذا لا يعني اعتباريتها كما رأينا في مذهب «الأشاعرة» بل هي قوانين

(1) التوحيد والشهود الوجداني، للمؤلف، ص129 - 136.

موضوعية ولها حقيقة في حركة الواقع الخارجي، ولكن القدرة الإلهية المطلقة قد تتحرك أحياناً لوقف هذه العملية الطبيعية في القوانين العلمية لغرض هام، ولا يشكل ذلك محذوراً منطقياً البتة. اما على مستوى بيان الاثباتات العقلية لهذه النظرية، والنقوض والاشكالات التي تواجه النظريات السابقة فهو خارج عن وسع هذا الكتاب الذي وعدنا فيه بالاختصار.

ضرورة المعجزة للنبي

هنا نحاول الاجابة على سؤال آخر بحثه علماء الكلام بالتفصيل، وهو: هل يجب على الأنبياء الإتيان بمعجزة كشرط لقبول الناس لدعوتهم، أو لا؟ هنا ثلاثة أقوال:

القول الأول:

يرى الكثير من علماء الشيعة والسنّة وجوب اقتران الدعوة الإلهية باظهار المعجز على يد النبي ليطمئن الناس إلى صدق الدعوة، بل ينحصر التصديق بالنبوة باظهار المعجزة. وهي ما ينصبه الله تعالى من خوارق العادة التي لا يمكن أن تصدر إلّا بتدخل القدرة الإلهية مباشرة، يقول الشيخ المظفر:

«نعتقد أنّه تعالى اذ ينصب لخلقه هادياً ورسولاً لابدّ أن يعرّفهم بشخصه ويرشدهم إليه بالخصوص على وجه التعيين. وذلك منحصر بأن ينصب على رسالته دليلاً وحجة يقيمها لهم، إتماماً للطفه واستكمالاً للرحمة، وذلك الدليل لابد أن يكون من نوع لا يصدر إلّا من خالق الكائنات ومدبّر الموجودات، أي فوق مستوى مقدور البشر فيجريه على يدي ذلك الرسول الهادي ليكون معرفاً به

ومرشداً اليه، وذلك الدليل هو المسمى بـ(المعجز أو المعجزة)[1].

ويقول الإمام الخوئي في «البيان»:

«ومن الضروري أيضاً أن السفارة الإلهية من المناصب العظيمة التي يكثر لها المدعون، ويرغب في الحصول عليها الراغبون، ونتيجة هذا أن يشتبه الصادق بالكاذب، ويختلط المضلّ بالهادي وإذن فلابد لمدعي السفارة أن يقيم شاهداً واضحاً يدلّ على صدقه في الدعوى، وأمانته في التبليغ، ولا يكون هذا الشاهد من الأفعال العادية التي يمكن لغيره أن يأتي بنظيرها، فينحصر الطريق بما يخرق النواميس الطبيعية.

وإنما يكون الاعجاز دليلاً على صدق المدعي، لأن المعجز فيه خرق للنواميس الطبيعية، فلا يمكن أن يقع من أحد إلّا بعناية من الله تعالى وإقدار منه، فلو كان مدعي النبوة كاذباً في دعواه، كان اقداره على المعجز من قبل الله تعالى اغراءً بالجهل واشادة بالباطل، وذلك محال على الحكيم تعالى، فاذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالة على صدقه وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوته»[2].

وأهم ما يمكن أن يتمسك به في المقام هو أن صحة وحقانية الرسالة في دائرة العقل لا تستلزم أن تكون هذه الرسالة من الله تعالى وأن صاحبها مبعوث من قبل الله، ولذلك لابد لاثبات هذا المطلب من دليل آخر يدل عليه، ولا يكون ذلك إلّا بآية من الله يختص بها هذا المدعي لمقام السفارة ليتبين للناس صدق دعواه

(1) عقائد الإمامية – ص 51 – 52.

(2) الإمام الخوئي – البيان في تفسير القرآن – ص 35 – ط دار الزهراء – بيروت.

كما هو الحال في من يرسله الملك إلى الناس ليبين لهم دستوراً ملكياً، فلابد أن يبعث معه ما يؤيد كونه رسول الملك ليستجيبوا له ويطيعوا أمره، والّا كان من حقّ الناس أن لا يصغوا إلى كلامه ولا يعبأوا بشأنه.

القول الثاني:

هذا وقد أنكر آخرون لزوم اظهار المعجزة لمدعي النبوة على أساس من كفاية العقل في دائرة الإثبات والنفي وأن الغرض الالهي يتحقق بمجرد بعث النبي إلى الناس لكيلا يكون لهم على الله حجة بعد الرسل، أي أن اللطف الإلهي بالبشر يستدعي فتح باب الهداية على مصراعية ودعوة الناس لها لا أكثر، وهذا المطلب لا يستوجب اكثر من بعث الأنبياء ودعوتهم الناس إلى الهدى وارشادهم إلى العقائد الحقة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم لو كان من اللازم على كل نبي أن يأتي بمعجزة لذكر ذلك القرآن في آية من آياته الكثيرة، بل اننا نجد العكس من ذلك، فالقرآن يكذّب بصراحة هذا الادعاء على المستوى النظري تارة، حيث تنكر الآيات بصراحة لزوم الإتيان بالمعجزة للنبي كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآيات: 90 - 93.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ﴾[1].

وعلى المستوى العملي والتطبيقي تارة أخرى من خلال عرض سيرة الأنبياء في أقوامهم حيث لا نشاهد فيها أيّ معجزة لكثير من الأنبياء العظام كنوح وإبراهيم ويونس وشعيب ولوط ويعقوب وزكريا ويحيى وغيرهم، وما يقال من القاء إبراهيم في النار وصيرورتها برداً وسلاماً، كما يقول القرآن، لم يكن على مستوى المعجزة، أي أنهم لو لم يلقوه في النار لبقي يحاججهم بالأدلة العقلية والمواعظ الوجدانية كما في محاججته لنمرود المذكورة في القرآن، وكذلك ما يقال من طوفان نوح، فلم يكن على سبيل المعجزة، لأنها جاءت بعد فوات الأوان وكعقوبة الهية من منطلق الغضب الالهي لا من منطلق اللطف الالهي المفروض في المعجزة.

والحقيقة أنّه لا يمكن الخروج بنتيجة قطعية من خلال التنقيب في الايات القرآنية، فالقرآن لا يؤيد بصراحة أحد هذين الوجهين (لزوم المعجزة وعدم لزومها)، فنبقى نحن مع دليل العقل. ولكن العقل بدورة لا يرى بداهة لزوم المعجزة لمدعي النبوة رغم قيام عنصر الاستحسان فيها، ومعلوم ان الاستحسان غير القول بالضرورة.

هذا والقرآن يرشد الناس إلى أن السبيل إلى تصديق الأنبياء هو شهادة الوجدان، أي أن يرجع الإنسان إلى وجدانه ليتأكد من صحة هذه الدعوى من خلال مطابقتها للوجدان وتوافقها مع سلوك الداعية، وفي ذلك تقول الآية:

(1) سورة إبراهيم، الآية: 11.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

فهنا نجد علامتين لصدق دعوى النبي، وهما:

1 - أنّه لا يسأل من الناس أجراً على مستوى المال أو المقام أو الجاه وأمثال ذلك.

2 - أنه من المهتدين، ومعلوم أن تشخيص هذا المعنى وأن هذا المدعي هل هو من المهتدين أم لا؟ ليس له طريق إلّا بدلالة الوجدان والعقل الفطري المركوز في كل فرد من أفراد البشر. لأن الناس حسب الفرض يعيشون حياة الجاهلية والضلال، إلّا أن هذا لا يمنع من أن يحكّموا وجدانهم الاخلاقي وفطرتهم الانسانية في كشف صدق المدعي أو كذبه، كما نجد هذا المعنى في المسلمين الأوائل الذين صدقوا بالنبي لا بسبب اعجازية القرآن، بل لتوافق دعوته مع الفطرة من جهة، وانه ﷺ كان معروفاً لديهم بحسن السيرة والصدق والامانة من جهة اخرى، وفي ذلك يقول جعفر الطيار لما سأله النجاشي عن هذا الدين الجديد:

«إن هؤلاء - قريش - على شرّ دين، يعبدون الحجارة ويصلّون للاصنام، ويقطعون الارحام، ويستعملون الظلم، ويستحلّون المحارم، وإنّ الله بعث فينا نبياً من أعظمنا قدراً، وأشرفنا سرراً، وأصدقنا لهجة، وأعززنا بيتاً، فأمر عن الله بترك عبادة الأوثان، واجتناب المظالم والمحارم. والعمل بالحق والعبادة له وحده»[2].

---

(1) سورة يس، الآيتان: 20 - 21.

(2) تاريخ اليعقوبي، ج 2 - ص 24 - ط 4، المطبعة الحيدرية - النجف.

فنلاحظ أن جعفر لم يشر إلى وجود معجزة أدّت إلى إيمانهم بهذا الدين الجديد وتصديقهم للنبي المبعوث سوى ما ذكرنا من الدليل الوجداني على صدق النبوة الذي ذكره جعفر ضمن كلامه هذا.

ثم إن كل معجزة لا تدل عقلاً على أكثر من أن صاحبها يتمتع بقوة خارقة أو مرتبط بقوة غيبية أعلى من قوة البشر، اما أنّه مرتبط بالله تعالى وأن هذه الأفعال العجيبة هي من فعل الله تعالى، فذلك خارج عن مدلول المعجزة، بل قد لا يجد العقل فرقاً بين بعض المعاجز وبين السحر، فمثالاً ما يقال من «شق القمر» كمعجزة من معاجز نبينا الكريم هي أحد النماذج على ذلك، فالمشركون الذين رأوا القمر منشطراً إلى نصفين أنّى لهم إثبات أن ذلك قد حدث على نحو الحقيقة؟ أليس من حقّهم أن يقولوا عنه أنّه «سحر مبين»؟ حيث لا طريق للعقل للتمييز هنا بين السحر والمعجزة، أي أن الإنسان يفتقد المعيار العملي والتجريبي لاثبات صدق القضية أو كذبها، وهكذا الحال في عصا موسى وانقلابها إلى ثعبان، فالعقل البشري لا يجد محالاً في أن يكون النبي موسى أقوى في فن السحر من جميع السحرة في زمانه. أو أن له قدرة خارقة في ذلك لم يدرك فحواها السحرة.

بعد هذا يتضح فحوى ما ورد في الحديث الشريف:

«اعرفوا الله بالالوهية، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وهذا الحديث يؤيد ما ذكرنا في كتاب «التوحيد والشهود الوجداني» من أن معرفة الله لا تتم من خلال البراهين العقلية، بل

بالتجربة الدينية والاحساس الوجداني في أعماق الذات، وكذلك في الإيمان بالنبي فانه لا يتحقق بالمعجزة، بل من خلال الرسالة وفحواها ومحتواها ومدى تطابق سيرة صاحبها مع مدعاه بما يثمر القناعة لدى الوجدان بأنه نبي مرسل من الله تعالى.

القول الثالث:

وهو أن يقال بوجود شيء واحد يمكن أن يقع في دائرة الاثبات العقلي على لزوم الإتيان بالمعجز من قبل النبي. وهو فيما لو جاء النبي بشريعة وتكاليف تعبدية خارج اطار معطيات الوجدان والعقل العملي، فمن هنا يحقّ للاتباع أن يطالبوه بآية بينة على انه مرسل من قبل الله بهذه التكاليف الشرعية، ومن هكذا يكون الأقرب للصواب في مسألة لزوم المعجزة للنبي وعدمها أن يقال بالتفصيل بين النبي والرسول. فالنبي لو كان نبياً فحسب أي من دون شريعة، فلا يجب عليه الإتيان بمعجز لاثبات صدق دعواه، لأنه لم يأتهم إلّا بما هو مقتضى عقولهم وفطرتهم، فالنبي «لوط» كان ينهاهم عن ارتكاب الفحشاء واتيان الذكور، والنبي «شعيب» كان ينهاهم عن التطفيف في الميزان، والنبي «إبراهيم» كان ينهاهم عن عبادة الأوثان، ومعلوم أن كل هذه الأمور فطرية، والعقل قبل الشرع هو الذي يتكفل بالنهي عنها، فليس دور النبي هنا سوى التذكير والارشاد لما حكم به العقل، وبديهي أن هذا المعنى لا يحتاج إلى اثبات أن هذا الرجل الذي ينهاهم عن المنكر هو نبي من الله تعالى، بل ليكن أحد الصالحين من الناس، ولكن إذا كان قد جاءهم بشريعة وتكاليف وأمر ونهي فه.

دائرة العبادات والمناسك الدينية، فيحق للناس مطالبته بما يثبت كونه مرسلاً من الله بهذه التكاليف.

ومما يؤيد هذا القول بالتفصيل هو أن أصحاب الشرائع الثلاثة «موسى وعيسى ومحمد» تحركوا في دعوتهم من موقع التأكيد على المعجزة والاستدلال بها لاثبات حقانيتهم وصدق دعواهم في كونهم مرسلين من قبل الله تعالى بهذه الشرائع إلى الناس، بخلاف غيرهم من الأنبياء كلوط وهود ويونس وزكريا ويحيى وامثالهم، اما ما ورد من «ناقة» صالح، فلم تكن هذه المعجزة على سبيل الوجوب واللزوم، أي لا تدل على لزوم الإتيان بالمعجز كما هو المطلوب، بل على سبيل النفل والتفضل من الله تعالى، ومعلوم أن الإتيان بالمعجز من شأنه تقوية موقع النبي في قومه، وما يترتب على ذلك من تمايل الناس له، وازاحة الموانع النفسية والعقبات الثقافية امام دعوته، ولكن كل ذلك لا يعني اللزوم والوجوب كما ذكرنا، وأما بالنسبة إلى «إبراهيم» فشريعته مختصة بذريته المؤمنين، ولا حاجة له إلى إثبات نبوته لهم بالمعجزة.

ويصل الكلام بنا إلى إعجازية القرآن، وهل أنّه نزل كمعجزة لاثبات صدق النبي ﷺ كسائر معاجز الأنبياء المذكورة لهم، أو انه أساساً نزل ككتاب سماوي لهداية البشر وتعليمهم وارشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم، والاعجاز من لوازمه غير المقصودة بالدرجة الأولى؟ فهذا ما سنتكلم فيه بشيء من التفصيل بعد بيان الوجوه التي ذكرها المفسرون وعلماء الكلام لاعجازية القرآن ومناقشتها.

الفصل الثاني

الاعجاز القرآني في الموروث الديني

- هل القرآن معجزة بلاغية؟
- هل الانباء بالمغيبات يعدّ معجزة؟
- الاعجاز القرآني وعدم الإختلاف فيه.
- القرآن والتحدي بالعلم
- التحدي بمن انزل عليه القرآن.
- القرآن والتحدي بمجموع الآيات.

في هذا الفصل نستعرض أهم ما قيل في موروثنا الديني حول سرّ الاعجاز القرآني معتمدين في ذلك على مصدرين أو ثلاثة من أمّهات كتب التفسير المعتبرة لدى الشيعة وأهل السنة، فقد اخترنا من تفاسير الشيعة تفسير «الميزان» للعلّامة الطباطبائي، ومن تفاسير أهل السنة تفسير الشيخ محمد رشيد رضا، المعروف بـ«تفسير المنار»، وأحياناً نستعين بتفاسير أخرى معتبرة أيضاً مثل التفسير «الامثل» للشيخ مكارم الشيرازي، و«البيان» للسيد الخوئي. كل ذلك مراعاة للاختصار والدقة، وإلّا فمثل هذه المباحث والدراسات حول الاعجاز القرآني متوفرة في العشرات من الكتب الإسلامية لعلماء الإسلام المتقدمين منهم والمتأخرين، إلّا أنّها تشترك جميعاً في أوجه النظر المذكورة في «الميزان» و«المنار» وأمثالهما من كتب التفسير المعتبرة.

أما أهم ما قيل في تصوير الاعجاز القرآني، فهو:

1 - الإعجاز البلاغي للقرآن

يقول الطباطبائي صاحب الميزان في تصوير التحدي القرآني للبشر:

«وقد تحدى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ

ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

والآية مكية.. وفيها التحدي بالنظم والبلاغة فان ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لا يرتاب أن العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم..»[2].

ويقول صاحب تفسير «المنار» في بيان المعجزة البلاغية للقرآن:

«الوجه الثاني: بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده، ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا، وانما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار سوره بلغت حدّ الإعجاز فيه. والقائلون به لا يحصرون إعجاز كل سورة فيه، ويتحقق التحدي عندهم باعجاز بعض السور القصيرة بغيره، كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سورة، على أن مسيلمة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها، فجاء بخزي كان حجة على عجزه وصحة إعجازها...»[3].

(1) سورة هود، الآيتان: 13 - 14.
(2) الطباطبائي - الميزان - ج 1 - ص 68.
(3) الإمام محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ج 1 - ص 168.

ونلاحظ عليه:

1 - إن الآية محل الشاهد لا إشارة فيها للتحدي البلاغي كما يدعى، وإنما هو مجرد تحدٍّ لأن يأتوا بعشر سور مثله، ولا دليل على أنّها مثله في خصوص البلاغة والفصاحة، وقول العلامة أنّه هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ هو أول الكلام، فحتى على فرض أن العرب يومئذ كانوا قد بلغوا من البلاغة مبلغاً، إلّا أنّه مجرد شأن ظاهر كما يقول، وهو مبني على خلفية ذهنية ومسبوقات فكرية على أن العرب مهروا في البلاغة والفصاحة، في حين أن هذا المعنى مجرد ادعاء، فلكل لغة وقوم بلاغتهم وفصاحتهم وشعراؤهم وادباؤهم، فمن قال بأن العرب وشعراءهم أبلغ من الفرس أو الفرنسيين في لغتهم وأدبهم وشعرهم؟

فنحن أمام قضية يستحيل الحكم فيها لصالح أحد الأقوام والثقافات البشرية، لأن مقاييس بلاغة كل لغة وثقافة مختصة بتلك اللغة لا تتعداها إلى غيرها، فالأدباء العرب يرجحون الأدب العربي الجاهلي من حيث البلاغة والفصاحة، والأدباء الفرس يرون في شعر حافظ وسعدي وبهار (ملك الشعراء) أنّه أبلغ من جميع الأشعار، وهكذا ترى كل امة في أدبائها وشعرائها ذلك.

2 - إن القرآن نفسه يكذّب هذا الإدعاء بالتحدي البلاغي، لأنه يتحدى الانس والجن قاطبة ويقول:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.

ومعلوم أن الأقوام البشرية لا تتكلم العربية بأجمعها، بل أن العرب لا يشكلون إلّا جماعة صغيرة ونسبة قليلة جداً من الذين يتكلمون باللغات غير العربية، فاذا أضفنا الجن اليهم ازدادت نسبة الطرف المقابل كثيراً، ولا يعقل أن يتحدى الله سبحانه كل هؤلاء بأن يأتوا بمثل هذا الكتاب العربي في بلاغته وهم لا يفهمون من بلاغته شيئاً، ولو طلب منهم الإتيان بكتاب مثله بلغتهم لأمكن أن يدّعوا بأن كتابهم أفصح وأبلغ، ولا معيار في البين يمكن التحاكم إليه لتشخيص الفائز في هذه المسابقة.

فالمفروض في المقام أن يتحدى القبائل العربية فقط لا الإنس والجن.

3 - إذا كان معنى المعجز كون العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله في البلاغة، فنهج البلاغة للإمام علي عليه السلام كذلك، فالعلماء وأهل الأدب والبلاغة يصفون هذا الكتاب أنّه: «فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق» ومحل الشاهد هو الجملة الأولى، فلو فرضنا أن كلام الإمام علي عليه السلام فوق كلام البشر من جهة البلاغة، فيصح تسميته بالمعجزة على التعريف المذكور، ولم يبق فرق حينئذ بينه وبين القرآن من هذه الجهة إلّا من حيث التحدي، أي أن الإمام لو كان قد تحدى العرب على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا، فثبت أن مجرد الإتيان بكتاب بليغ لا يستطيع الآخرون على الإتيان بمثله يمكن أن يصدر من البشر ولا يختص ذلك بالله تعالى. فاذا استطاع الإمام علي أن يأتي بكتاب أعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله، فالنبي الذي هو أبلغ وأفصح من الإمام علي بإمكانه أن يأتي أيضاً بكتاب تعجز العرب جميعاً عن الإتيان بمثله، وبعبارة

أخرى: أنّه كما عجزت العرب عن الإتيان بمثل نهج البلاغة وهو كلام بشري، فكذلك عجزوا أيضاً عن الإتيان بكتاب مثل القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، وعليه فما المانع من أن يكون هذا الكتاب، وهو القرآن، كلام بشري أيضاً؟

4 - لماذا لا يمكن القول - مع تفريغ الذهن من المسبوقات العقائدية - أن نهج البلاغة في بعض موارده أبلغ من بعض آيات القرآن، فمع مقارنة بسيطة بين بعض الآيات من القرآن الكريم وفقرات من نهج البلاغة يتضح هذا المعنى جلياً وعلى سبيل المثال نختار من «نهج البلاغة» قوله عليه السلام:

«فيا عجبا!! بينا هو - أبو بكر - يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته - لشدّ ما تشطّرا ضرعيها، فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم وإن اسلس لها تقحّم، فمني الناس - لعمر الله - بخبط وشماس وتلون واعتراض. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة»[1].

أو قوله عليه السلام في الموعظة:

«أما بعد، فان الدنيا أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت واشرفت باطلاع، إلا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته، إلا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه... إلا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، إلا وانه من لا ينفعه الحق يضره الباطل.

(1) نهج البلاغة - الخطبة 3.

ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى...»[1].

ومنها قوله عليه السلام في «دعاء الصباح»:

«اللهم يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوّار في مقادير تبرجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأجّجه، يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملائمة كيفياته، يا من قرب من خطرات الظنون وبعد عن لحظات العيون وعلم بما كان قبل أن يكون، يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه، وأيقظني إلى ما منحني به من مننه وإحسانه، وكفّ اكفّ السوء عني بيده وسلطانه...»[2].

ثم لنضع هذه العبارات إلى جانب سورة قرآنية للمقارنة البلاغية، ولتكن هذه السورة:

«لإيلاف قريش، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا ربّ هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف».

أو سورة النصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[3].

فمع مقارنة سريعة بين الطائفتين من المقاطع الأدبية والبلاغية يتضح لنا جلّي الحال وأن الإعجاز البلاغي للقرآن ليس سوى أدعاء

(1) نهج البلاغة - الخطبة 28.
(2) مفاتيح الجنان - دعاء الصباح.
(3) سورة النصر، الآيات: 1 - 3.

فارغ يتشبث به من لم يعِ حقيقته ويتحركون في اثبات أرجحية الآيات المذكورة على مقاطع نهج البلاغة من موقع التعصب والحساسية المذهبية، ولكن لو تقدمنا في مسألة التحكيم بين هذه النصوص إلى غير المسلمين من الأدباء العرب مثل: جرجي زيدان، جورج جرداق، جبران خليل جبران (رحمهم الله) والذين لا يخفى على كل باحث فضلهم وأثرهم المشكور على الثقافة العربية والإسلامية، فماذا تتصورون نتيجة التحكيم؟

غاية ما يتوقع من نتيجة التحكيم هو القول بالتساوي، وحتى على فرض أن تكون الآيات أقوى على مستوى البلاغة والفصاحة، فان هذا الامتياز للآيات لا يكون بشكل فاضح وسافر بحيث يمكن أن يعدّ معجزة، ومن مقومات الإعجاز أن يكون بشكل سافر إلى درجة لا يمكن قياسه ومقارنته بفعل البشر، كإحياء عيسى للموتى، أو انقلاب العصا إلى ثعبان حقيقي بحيث أهوى السحرة أنفسهم إلى السجود بمجرد رؤيته. أما لو كان الاختلاف طفيفاً بحيث يتردد فيه بعض الناس ويحملونه على نبوغ مدعي النبوة وأعلميته بالنسبة إلى سائر الناس فلا يصح ادعاء الإعجاز، وما نحن فيه من هذا القبيل، فالافضلية البلاغية للآيات - لو سلمت - لا تكون بمستوى أن يقال أنّها معجزة بالنسبة إلى عبارات النهج. نعم قد تكون معجزة فيما إذا قورنت بكلام ركيك وسخيف مثلما أوردوا من آيات قرآن مسيلمة «الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل. له ذنب قصير وخرطوم طويل...».

وأعجب ما يقال: إن «نهج البلاغة» كلام معصوم ومسترفد من

منهل الوحي والنبوة، فهو معجز من هذه الجهة أيضاً، ولذا لا يصح مقارنة المعجز بالمعجز، وهذه - كماترى - حيلة العاجز، لأن المقصود هو مقارنة القرآن بكلام البشر أياً كان، والإمام علي عليه السلام بشر، وكلامه كلام بشر، والقرآن تحدى جميع البشر - بما فيهم الإمام علي - على أن يأتوا بمثله، والعرف والعقل المنصف والوجدان المحايد يشهدون على أن عبارات نهج البلاغة المذكورة مثل الآيات في البلاغة، والاختلاف الطفيف لو سلّم، لا يعدّ دليلاً قاطعاً على الإعجاز كما تقدم، بل يقال أن هذا أفضل من ذاك.

والسرّ في ذلك أن القرآن جاء (تبياناً) ولتفهيم السواد من الناس وهدايتهم، ولذلك كانت الآيات القرآنية أسهل مؤونة وأوضح معنى من عبارات نهج البلاغة، ولم يكن غرض القرآن من أول الأمر التنافس مع بلغاء العرب وأدبائهم كما توهم العلامة وكثير من العلماء والمفسرين، غاية الأمر أن القرآن بما أنّه كلام الله فلابد أن يكون بليغاً وخالياً من الخطأ البلاغي، ولكن أن يكون أبلغ من غيره بالضرورة فهو أول الكلام.

5 - على فرض أن عبارات نهج البلاغة وكلمات النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام لا تناظر القرآن الكريم في بلاغته، ولكننا نفتقد إلى الميزان الذي نزن بلاغة الكتب والقصائد الأدبية المعاصرة للقرآن، ومن ثم اجراء مقايسة بينها وبين القرآن، لأن الأدباء الذين يفترض كونهم حكماً في مثل هذه المقارنة الأدبية إن كانوا من غير المسلمين لم تسمع حجتهم فيما لو حكموا لصالح تلك الكتب والقصائد الشعرية، وان كانوا من المسلمين فعقيدتهم

تفترض عليهم التحيّز لصالح القرآن وتبرير كل ما يوهم ضعفاً بلاغياً بتخريجات وذرائع مختلفة ليحفظوا للقرآن تفوقه البلاغي كما هو المشاهد في منهج العلماء والمفسرين في عملية المقارنة بين القرآن وبين غيره من الكتب، فالملاحظ أنهم يقارنون بين آيات القرآن وآيات يدّعون أنّها من مسيلمة الكذاب في قرآنه المزعوم «الفيل ما الفيل، له خرطوم طويل..» ويسخرون من سخافة هذا الكلام بالنسبة إلى القرآن الكريم، في حين أن الأجدر بهم مقارنة القرآن بنهج البلاغة و«تحف العقول لآل الرسول» الذي يجمع بين دفتيه درر وجواهر من كلمات المعصومين ﴿﴾ هي آية في البلاغة والفصاحة، لا أن يخلقوا كلاماً تافهاً وينسبونه إلى المنافس للقرآن ثم يجلسون ليتفكّهوا على سخافة ذلك الكلام وركاكته!!

وعلى أية حال نحن أمام إشكالية معيارية خاصة في هذه المقارنة، لأن هؤلاء المحكّمين يعتبرون القرآن معجزة في البلاغة في مرحلة سابقة بل هو الميزان للفصاحة والبلاغة، وحينئذ لا يوجد ميزان ومعيار خارج دائرة المتسابقين ليقاس به درجة كل واحد من أفراد حلبة السباق.

6 - على فرض أن القرآن تحدى العرب بالبلاغة، إلّا أن نظرة تاريخية سريعة للموقف في ذلك الزمان يشير إلى عدم تحقق الفرصة للمشركين للموافقة على هذا التحدي وقبوله، وحينئذ يبقى التحدي القرآني البلاغي مجرد شعار واطروحة تفتقد الميدان العملي لترجمتها على أرض الواقع، المشركون عاشوا لمدة عشر سنوات (فترة وجودة النبي في مكة منذ الاعلان عن الدعوة إلى زمان الهجرة) لا يتصورون أن هذا الدين الجديد قد يبلغ به الخطر

إلى أن يهدد وجودهم وكيانهم بين القبائل، فما هو إلّا انحراف جزئي عن مسيرة قريش في عبادة الاوثان وسلوك شاذ لدى فئة قليلة من الفقراء والعبيد يمكن معالجته بأدوات الارعاب والقهر والتعذيب. فلم يشعروا بالخطر الجدّي على دينهم وكيانهم حتى يهتموا للإتيان بكتاب نظير القرآن في البلاغة، وخاصة إذا علمنا أنّ أول آيات التحدّي نزلت في سورة الإسراء وهي من السور المكّية التي نزلت قبل الهجرة بسنة أو سنتين، وسائر آيات التحدّي نزلت في المدينة، ولما أحسّ المشركون بالخطر وهاجر النبي إلى المدينة أنشغلوا بالحروب والقتال مع أنصار هذا الدين الجديد وكانت المواجهة بينهما قد أخذت طابعاً عسكرياً وميدانياً، والغلبة لمن يغلب خصمه في ميدان القتال لا في البلاغة، واستمر الحال على هذا المنوال عشر سنوات أُخرى تقريباً حتى دخل المشركون وعلى رأسهم قريش في الإسلام جميعاً، وحينئذ أغلق باب التحدي عملياً، لأن أحد المسلمين مهما كان بليغاً لا يتجرأ على منازلة القرآن وقبول تحديه بل ولا يفكر في مثل هذا الأمر لأن مصالحه ستتعرض حتماً إلى الخطر، وأهون ما يصير إليه أن تضرب عنقه بتهمة الإرتداد وتكذيب القرآن.

7 - إن مثل هذه المسابقات لا تقبل التحدي لمجموعة من الأفراد فضلاً عن جميع العرب وبالتعاون فيما بينهم، أي أن هذا التحدي يقوم على أساس فردي لا جماعي، وعلى سبيل المثال نلاحظ في المسابقات الرياضية أن بعض المسابقات يقبل التحدي الجماعي وبعضها لا يقبل، فالمصارعة ورفع الأثقال تقبل التحدي الجماعي بأن يتحدى شخص قوي عشرة من الأشخاص أن يتعاونوا

فيما بينهم على مصارعته، أو على رفع الثقل الذي يرفعه لوحده، وأما في مثل السباحة أو العدو فالأمر يختلف، فالمتحدي هنا لا يتحدى المتسابقين بأجمعهم وبالتعاون فيما بينهم، بل يتحدى كل واحد على حدة، لأنه لا معنى للتعاون بين السابحين أو العدّائين ضد شخص واحد، فكل منهم يريد السبق والفوز بالجائزة، وحينئذ لابد وأن يكون أحدهم هو السابق.

بعد هذا نقول: إن التحدي البلاغي هو من النوع الثاني لا الأول، فليس بامكان بلغاء العرب أن يتفقوا على الإتيان بقصيدة موحّدة لمعارضة القرآن، لأن فن البلاغة والشعر لا يقبل اشتراك الكثيرين على نص واحد، فكل شاعر له قريحته ومزاجه وذوقه الشعري والأدبي، والقصيدة الرائعة لابد وأن تكون من نسيج شخص واحد، وعلى هذا لا معنى لأن يتحدى القرآن جميع البشر بالتحدي من النمط الأول ويقول «ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»، ولابد وأن يكون النزال في هذه المسابقة على شكل فردي، وحينئذ لابد وأن يكون الفائز أحد المتسابقين ولا يمنع من أن يكون أحد افراد البشر، ولا عجب في ذلك ولا معجزة، فقد يأتي أحد العدّائين ويسجّل رقماً قياسياً لا يستطيع أحد من البشر أن يصل إليه أو يسبقه، أو يحمل ثقلاً لا يستطيع أحد من الناس أن يحمله على انفراد، ومعه هل يمكنه أن يدعي قيامه بمعجزة ويتحدى الآخرين على هذا الأساس؟!

8 - سلّمنا أن القرآن معجزة بلاغية ولم يستطع العرب أن يأتوا بمثله، إلّاأن ذلك لا ينفعنا من قريب أو بعيد، لأن القضية سوف تكون تاريخية فحسب، ولا يمتد ذلك التحدي القرآني ليشملنا نحن

العرب فضلاً عن غيرنا، لاختلاف الانساق البلاغية ومناهج الفصاحة والبلاغة في هذا الزمان عن زمن نزول القرآن بحيث إن الأساليب البلاغية في عصر نزول القرآن أصبحت قديمة ومرفوضة في الأدب العربي الحديث، فلو أن الأدباء المعاصرين لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن لم يكن دليلاً على ضعفهم الأدبي والبلاغي، بل لأنهم لم يمارسوا مثل هذا الأسلوب الأدبي القديم.

قد يقال: يكفي في إثبات معجزة القرآن البلاغية وكونه حجة علينا وعلى جميع الأقوام البشرية أنّه تحدى العرب في تلك الفترة الزمنية وعجزوا عن الإتيان بمثله، فثبت أنّه من الله تعالى لا من البشر.

فنقول: بأن هذا الكلام يساوي بين القرآن وبين معجزات الأنبياء السالفة كعصا موسى واحياء الموتى لعيسى، ويجعله معجزة تاريخية محضة، في حين أن علماء الإسلام في ردّهم على أرباب الأديان السابقة وأبطال مدّعاهم يتمسّكون بهذه الحجة وأن المعجزات المذكورة للأنبياء الماضين مثل موسى وعيسى قد أصبحت في ذمة التاريخ وزالت بزوال أصحابها، في حين أن معجزة الإسلام باقية وحيّة إلى يومنا هذا، وهذا المعنى لا ينسجم مع الإدعاء المذكور.

9 - المفروض أن تكون المعجزة الإلهية متماشية مع ما هو سائد في ذلك المجتمع وأن يكون التحدي في الأمور التي يرتضيها الطرف المقابل ومستعد للمبارزة وترجمتها على أرض الواقع العلمي بأن يكون له رموز وافراد تتوفر فيهم اللياقة الكافية والمهارة المتميّزة لقبول التحدي، في حين أن هذا المعنى غير متوفر فـ .

تحدي القرآن البلاغي للعرب، لأن العرب يومئذ كانوا شعراء فقط، وقد جاءهم القرآن بما لم يألفوا مثله ولم تكن لهم سابقة في هذا الميدان الأدبي إذ لم يكن في قريش ممن يعرف القراءة والكتابة سوى سبعة نفر، والنثر الأدبي يعتمد أشدّ الاعتماد على الكتابة والممارسة على الورق وليس كالشعر الذي يعتمد على القريحة فقط، وكان الأجدر بالقرآن فيما لو قصد التحدي البلاغي لهم أن يأتيهم على صورة شعر كما كان الشعر هو السائد، لا أن يأتيهم بشيء لا يعرفونه أو غير متمرسّين عليه.

10 - لو سلمنا كل ذلك، وقبلنا أن القرآن معجزة شاملة وخالدة وفوق طاقة البشر، إلّا أنّه يبقى شيء واحد، وهو أنّه كيف يمكن إثبات أن هذه المعجزة وهذا الكلام إنما هو من الله تعالى؟ فالعقل غاية ما يمكن أن يقوله في هذا الصدد أن هذا الكلام بهذا السبك البلاغي المعجز لا يمكن أن يكون من محمد ﷺ ولا أحد من البشر، بل هو صادر حتماً من قوة غيبية فوق طاقة البشر، ولكن هل أن هذه القوة الغيبية هي الله تعالى، أو الملائكة، أو الجن، أو مخلوقات من عالم آخر؟ العقل ليس له طريق إلى الكشف عن الجواب الصحيح، فتبقى العهدة حينئذ على الوجدان، وهذا هو ما سنفصله فيما بعد.

قد يقال: إن الله تعالى سوف يقوم بفضح كل ما هو خارق للعادة إذا كان فيه اضلالاً للعباد وكذباً على الله، والّا كان تركه والحال هذه اغراءً بالجهل وامضاءً للباطل، وذلك محال على الله تعالى ومخالف لمقتضى حكمته.

فنقول: إنّه تقدم في الفصل الاول ما يدحض هذا الاشكال

وانه لا يقبح على الله تعالى ذلك وخاصة في هذا المورد بالذات، لأن القرآن الكريم لا يعدّ اظلالاً للعباد واغراءً لهم بالجهل والباطل، فلماذا يتصدى الله تعالى لفضح المتحدث به؟ وبعبارة أخرى: إن القرآن ليس كتاب ضلال حتى يستدعي أن يقوم الله تعالى بمقتضى قاعدة اللطف بالكشف عن هذا الزيف والدجل، بل هو كتاب نافع جداً للبشرية على مستوى الدعوة إلى الله والاخلاق والقيم الإنسانية.

هذا أولاً، وثانياً: إن الواقع التاريخي يكذب هذا الادعاء، فكم من المنحرفين وأهل البدع والرياضات قد ضلّوا وأضلّوا جماً غفيراً من الناس ولم يتصد الله تعالى لمنعهم من اغواء الناس واضلالهم، بل ترك الأمر لعقول الناس ووجدانهم ليتحركوا من موقع المسؤولية والعقل لا من موقع الاهواء والأوهام.

يقول السيد المرتضى في ردّه على من ذهب إلى أن حكمة الله تقتضي المنع من الاغراء بالباطل من قبل المدّعين والمنحرفين: «وهذا غير صحيح، لأن الذي يمنعه أن يفعل الله تعالى الاستفساد، فأما أن يمنع منه فليس بواجب، لأن هذا يوجب أن يمنع الله تعالى كل ذي شبهة من شبهته، وأن لا يمكّن المتعبدين المنخرقين من شيء دخلت منه شبهة على أحد.

وقد علمنا أن المنع من الشبهات وفعل القبائح في دار التكليف غير واجب، وليس يجب إذا كان تعالى لا يستفسد أن يمنع من الاستفساد، كما لا يجب إذا لم يفعل القبيح أن يمنع منه في دار التكليف. . .

ثم يقال للمعلّق بهذا: أليس قد ضلّ بزرادشت وماني والحلاج ومن جرى مجراهم من المنخرقين والملتمسين جماعة وفسدت بهم أديانهم، فألا منعهم الله من هذا الاستفساد إن كان المنع منه واجباً؟»[1].

وعلى أية حال: فهذا الاشكال الاخير على مقولة الإعجاز البلاغي هو ما ذهب إليه السيد المرتضى علم الهدى في «الذخيرة» حيث قال:

«وقد بيّنا في كتابنا في جهة اعجاز القرآن أن من لم يقل في جهته ما اخترناه من الصرفة يلزمه سؤالان لا جواب عنهما إلّا لمن ذهب إلى الصرفة:

(السؤال الأول) أن يقال: ما أنكرتم أن يكون القرآن من فعل بعض الجنّ ألقاه إلى مدّعي النبوة، وخرق به عادتنا، وقصد بنا إلى الاضلال لنا والتلبيس علينا. وليس يمكن أن يدعي الاحاطة بمنبع فصاحة الجن وأنّها لا يجوز أن يتجاوز عن فصاحة العرب. ومع هذا التجويز لا يحصل الثقة بأن الله تعالى هو المؤيد بالقرآن لرسوله ﷺ.

وقد يمكن ايراد معنى هذا السؤال على وجه آخر، فيقال: إن محمداً ﷺ لم يدّع في القرآن أنّه كلامه، وإنما ذكر أن ملكاً هبط به اليه، وقد يجوز أن يكون ذلك الملك كاذباً على ربه، وأن يكون القرآن الذي نزل به من كلامه لا من كلام خالقه، فان عادة الملائكة

---

(1) السيد المرتضى - الذخيرة - ص 386 - تحقيق أحمد الحسيني - ط جماعة المدرسين.

في الفصاحة ممّا لا نعرفه، وعصمة الملائكة قبل العلم بصحّة القرآن والنبوة لا يمكن معرفتها، فالسؤال متوجه على ما ترويه»[1].

ولهذا السبب ذهب السيد المرتضى والشيخ الطوسي والمفيد وجمع من المعتزلة إلى مذهب الصرفة وأن الإعجاز القرآني يتمثل في أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن وحال دون ذلك تكويناً، وإلّا فالقرآن الكريم لا يعدّ معجزة بلاغية بحدّ ذاته بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

القول بالصّرفة

وفي تقريره لهذا القول يقول السيد المرتضى : «في جهة دلالة القرآن على النبوة:

اختلف الناس في ذلك، فقال قوم: إن وجه دلالة القرآن على النبوة أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وسلبهم العلم الذي به يتمكنون من مماثلته في نظمه وفصاحته، ولو لا ذلك لعارضوا.

وإلى هذا الوجه أذهب، وله نصرت في كتابي المعروف بالموضح عن جهة اعجاز القرآن، وقد حكي عن أبي إسحق النظام القول بالصّرفة من غير تحقيق لكيفيتها وكلام في نصرتها. . . .

ثم قال: فان قيل: بيّنوا كيفية مذهبكم في الصرفة.

قلنا : الذي نذهب إليه أن الله تعالى صرف العرب عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطريقته ونظمه، بأن سلب كل من رام المعارضة العلوم التي يتأتى ذلك

(1) المصدر السابق، ص385.

بها، فان العلوم التي بها يمكن ذلك ضرورية من فعله تعالى فينا بمجرى العادة»[1].

ثم يورد (قدس سره) بعض اشكالاته على من يقول بوجوه أخرى من الإعجاز القرآني ومنها ما تقدم آنفاً من أن العقل بعد تسليمه أن هذا القرآن ليس من النبي ﷺ لا يأبى أن يكون من الجن أو الملائكة، والمطلوب من الإعجاز اثبات أن هذا الكتاب هو كلام الله تعالى، فالدليل قاصر عن اثبات المدعى.

ولكن سيأتي أن القول بالصرفة كذلك قاصر عن اثبات المدعى، وليس لاثبات ذلك سوى استخدام منهج «العقل الوجداني» لمعرفة حقيقة الإعجاز القرآني من خلال التفصيل بين «المعجزة المنصوبة» و«المعجزة المنسوبة» كما سيتبيّن في الفصل الأخير.

مناقشة القول بالصرفة

هذا وقد تصدى غير واحد من العلماء والمفسرين إلى دحض هذه المقولة واثبات أن القرآن معجز من حيث الفصاحة والبلاغة لا من حيث القول بالصرفة، ولكنك سترى أن أجوبتهم وردودهم لا تقوم على شيء من البرهان العقلي والمنطقي، ولم يأتوا بحجة مقنعة لابطال مذهب الصرفة المذكور.

كلام الشيخ السبحاني

ونبدأ في استعراض ما ذكر لابطال الصرفة بما قرره الشيخ السبحاني في «الإلهيات» في هذا المجال حيث قال:

---

(1) المصدر السابق - ص 378 - 380 - بتلخيص.

«والحق أنّها (نظرية الصرفة) ليست بنظرية قيّمة قابلة للاعتماد، وقد اورد عليها وجوه من النقاش والاشكال نكتفي بذكر ثلاثة منها:

الأول: ان المتبادر من آيات التحدّي ان القرآن في ذاته متعال، حائز أرقى الميزات وكمال المعجزات حتى يصح ان يقال في حقه بانه لو اجتمع الجن والأنس الخ، وإلى هذا الوجه يشير الخطابي بقوله: «إن قوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾[1] الآية: يشهد بخلاف هذه النظرية، لانها تشير إلى امر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، وما فسرت به الصرفة لا يلائم هذه الصفة»[2].

الثاني: لو كان عجز العرب عن المقابلة لطارىء مباغت أبطل قواهم البيانية، لاثر عنهم انهم حاولوا المعارضة، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولكان ذلك مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته. وقد أشار إلى هذا الوجه علي بن عيسى الرماني في «نكت الإعجاز» كما أشار إليه الإمام يحيى بن حمزة العلوي[3].

الثالث: لو كان الوجه في إعجاز القرآن هو الصرفة كما زعموا، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، ولما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته كما أثر عن الوليد بن المغيرة، فان

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.
(2) بيان إعجاز القرآن: 21.
(3) لاحظ مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني - 2/ 314.

المعلوم من حال كل بليغ فصيح سمع القرآن يتلى عليه، انه يدهش عقله ويحير لبّه وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف وحسن مواضع التصريف في كل موعظة وحكاية كل قصة، فلو كان كما زعمه اهل الصرفة لم يكن للتعجب من فصاحته وجه، فلمّا علمنا بالضرورة اعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة»[1].

وأنت خبير بما في هذا البيان من الخلل والقصور، فالتحدي للانس والجن لا ينافي أن الله تعالى قد صرفهم عن الإتيان بمثله وسلبهم المقدرة عن مجاراة بلاغته وفصاحته.

والتبادر المدعى في جوابه الأول لا يكون له شأن إلّا في دائرة البحث اللغوي والبلاغي لا في دائرة البرهان العقلي والمنطقي.

أما ما ذكره ثانياً من أن الصرف الإلهي لو كان لاثر عنهم ذلك ولكان مثار عجب لهم، فهو من غريب الكلام، فأي ملازمة بين أن يصرف الله تعالى المنتحلين والمحرّفين عن المساس بآيات القرآن من موقع التحريف والعبث بآياته وسوره على مستوى الزيادة والنقصان، وبين أن ينتبهوا إلى أن الله قد سلبهم القدرة وصرفهم عن ممارسة التحريف لكتاب الله؟ فما وقع للعرب في دائرة التحدي القرآني وعجزهم عن الإتيان بمثله لصارف الهي لا يلازم بالضرورة علمهم بوجود هذا الصارف الغيبي.

وأما الثالث من بيانه فهو ثالثة الاثافي، وكأن تعجب الوليد بن المغيرة من بلاغة القرآن يكفي شاهداً على هذا الادعاء العظيم وأن هذا الكتاب هو كلام الله تعالى!! وما اكثر ما تعجب اهل البلاغة

(1) الشيخ السبحاني - الإلهيات - ص 460 - 461.

والفصاحة من خطب الإمام علي عليه السلام واستعظموا بلاغتها ودقة معانيها كما مرّ علينا آنفاً، إلّا أنّه لم يدع أحد أنّه كلام الله، وما اكثر ما نتعجب نحن من مصنوعات البشر وما وصل إليه الإنسان في دائرة التقدم العلمي والتكنولوجي ولا يلازم ذلك أن نرتفع في صانع هذه الادوات والمصنوعات إلى مستوى الآلهة!!

هذا والعجيب من الشيخ السبحاني واضرابه أنهم لم يتعرضوا لدليل القائلين بالصرفة بالذكر ولم يوردوا له جواباً. وكان الأحرى بهم التحرك نحو حلّ ذلك الاشكال الذي دعا أولئك الأساطين من أهل المعرفة من علماء الشيعة والمعتزلة إلى سلوك مذهب الصرفة، وهو اشكال صدور القرآن من الجن أو الملائكة، ولا أظن أحداً يقدر على الخروج بمخلص منه إلّا بالقول بالصرفة، أو بما انتهينا إليه من الفصل بين المعجزة المنصوبة والمنسوبة واستخدام منهج العقل الوجداني في اثبات الإعجاز القرآني.

كلام السيد الخوئي:

وأعجب مما ذكر في ردّ القول بالصرفة هو ما أورده السيد الخوئي في «البيان»، حيث قال:

«وهذا القول - أي القول بالصرفة - في غاية الضعف:

أولاً: لأن الصرفة التي يقولون بها، إن كان معناها أن الله قادر على أن يُقدر بشراً على أن يأتي بمثل القرآن، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة من جميع البشر، ولم يؤتها لأحد منهم فهو معنى صحيح، ولكنه لا يختص بالقرآن، بل هو جار في جميع المعجزات!! (ثم ماذا؟ فعلى فرض انه جار في جميع المعجزات فهل يبطل القول بالصرفة؟).

وإن كان معناها أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن. ولكن الله صرفهم عن معارضته فهو واضح البطلان، لأن كثيراً من الناس قد تصدّوا لمعارضة القرآن، فلم يستطيعوا ذلك. واعترفوا بالعجز. (فنفس عجزهم وعدم استطاعتهم يدل على الصرفة، وكأن السيد تصور أن القول بالصرفة يعني صرفهم عن أصل التصدي والمعارضة).

ثانياً: لأنه لو كان إعجاز القرآن بالصرفة لوجد في كلام العرب السابقين مثله قبل أن يتحدى النبي البشر ويطالبهم بالاتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر لتكثر الدواعي إليه»[1].

وهذا أعجب من سابقه، لأن العرب لم يكونوا في صدد الاتصال بعالم الغيب والإتيان بكتاب من الله للبشر حتى يقال هذا الكلام، بل كان ديدنهم الشعر، ومعلوم أن الشعر ابلغ من النثر، ومعه لا حاجة لهم إلى الإتيان بنثر بليغ يوازي القرآن الكريم في بلاغته، وقد تقدم أن القرآن بمجرده وبغض النظر عن كونه كلام الله لا يعد معجزة بلاغية، وبالإمكان العثور على بعض النصوص الادبية وخاصة من نهج البلاغة هي أبلغ من بعض آيات القرآن الكريم، إلّا أنّه تبقى العذوبة والحلاوة في القرآن متميزة عن غيره، وليس ذلك لبلاغته كما يتوهم، بل لكونه من الله تعالى وصادر من أعماق وجدان الإنسان، لأن الله ليس منفصلاً عن خلقه، بل هو أقرب اليهم من حبل الوريد ويمثل بعداً وجودياً من ابعاد وجود الإنسان.

والسبب الذي دعا هؤلاء العلماء إلى التمسك بمثل هذه

(1) الإمام الخوئي - البيان - ص 83 - ط دار الزهراء - بيروت.

الطحالب لردّ القول بالصرفة - مع كونهم أساطين الفكر والاستدلال في دائرة الفقه والأصول - هو اعتقادهم المسبق بكون القرآن معجزة، لتصريح القرآن بذلك، ولمّا لم يجدوا في التحدي القرآني بما يناسب ذلك الزمان سوى عنصر الفصاحة والبلاغة، توهموا أن الإعجاز القرآني يتمثل في هذه الدائرة واصروا على كون القرآن معجزة على مستوى البلاغة والفصاحة، ومن ذلك جاءت كلماتهم بعيدة عن أفق البرهان المنطقي وكانت أشبه بالخطابيات والاستحسانات من حيث انطلاقهم في الدفاع عن هذه المفردة العقائدية من موقع الدفاع عن العقيدة والخوف لا من موقع الانصاف والتجرد من المسبوقات الدينية والعقائد الموروثة، وتصوروا أن انكار المعجزة البلاغية للقرآن سيوقعهم تحت ضغط تحديات المخالفين ويجردهم من الدليل على نسبة هذا الكتاب إلى الله تعالى، أي أنهم سلكوا في عملية اثبات أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى من قناة الإعجاز وأن القرآن معجزة، وبما أنّه معجزة فهو من الله، ولكن سيأتي في المنهج المختار أنّه لا حاجة لسلوك هذا المسلك فحتى لو لم يكن القرآن معجزة فهو من الله، وبما انه من الله فهو معجزة، لا انه معجزة فهو من الله.

الصحيح في ردّ القول بالصّرفة

والصحيح في مقام الردّ على مذهب الصرفة هو أن نقول بأنه لا لزوم إلى الصرفة أساساً، لأن البشر عموماً، فضلاً عن العرب، يستحيل عليهم بمقتضى كونهم بشراً أن يأتوا بكلام يخالف مقتضاهم ويماثل كلام الله تعالى، أي أن كلام البشر يتباين بالذات

مع كلام الله تعالى، لا لأجل البلاغة والفصاحة، ولا الأخبار بالمغيبات، ولا شيء آخر، وقد وردت الاشارة إلى هذا المعنى في الآية الشريفة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [1] وكلمة «لن» أشارة إلى هذا المحال والتباين الذاتي بين الكلامين.

وعليه فالعرب غير قادرين على الإتيان بمثل القرآن لأنه كلام الله وكل أفعال الله معجزة، والبشر لا يقدرون على الإتيان بأي شيء يماثل ما يصدر عن الذات المقدسة مهما كان تافهاً، فلا حاجة بعدها إلى أعمال القدرة الإلهية لصرف العرب عن الإتيان بمثله. ولكن هذا المعنى يتوقف أولاً على أثبات أن هذا القرآن هو كلام الله، ومن ثم الاعتراف بكونه معجزاً للبشر، وهو ما سيأتي الحديث عنه في الفصل الأخير.

2 - الإعجاز القرآني على مستوى النظم

يقول صاحب «المنار» في تقريره لهذه الصياغة من الإعجاز القرآني:

«**الوجه الأول**: اشتماله على النظم الغريب، والوزن العجيب، والاسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله ومقاطعه...

يقول القائل: إن أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوته كذلك، لا يشبه أسلوب منها أسلوباً، ولا يستويان منظوماً ولا منثوراً، فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزاً

(1) سورة البقرة، الآية: 24.

(ونقول) من قال هذا أبعد النجعة، وأوغل في مهام الغفلة. فمهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين، والتوشيحات والأزجل المعروفة عند المولدين، ومهما تختلف خطب الخطباء والمترسلين من الكتاب والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب، فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة التي بدأنا القول بها. ولا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها. ولكل منهم نظم وأسلوب خاص، فإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشري ونظم الكلام الإلهي فائت بقارىء حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلقين»[1].

ويقول «الشيخ السبحاني» في تقريره لهذا الوجه من الاعجاز: «ومما يدل على أن القرآن ليس كلام النبي الأعظم هو وجود البون الشاسع بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي، فمن قارن آية من القرآن الكريم مع الأحاديث القطعية الصادرة منه ﷺ أحسّ بمدى التفاوت بين الأسلوبين. وهذا يدل على أن القرآن نزل من عالم آخر على ضمير النبي»[2].

المناقشة:

لا أظن أن هذا الوجه بحاجة إلى مزيد بيان وتفصيل لاثبات بطلانه اكثر مما تقدم في الوجه الأول فمن الواضح أن مجرد الأسلوب الجديد في النظم الذي لا يشبه أي نظم أدبي آخر من

(1) الإمام رشيد رضا - المنار - ج 1 - ص 165، ط دار الكتب العلمية بيروت.
(2) الشيخ السبحاني - الالهيات - ص 453.

كلام العرب لا يدل من قريب أو بعيد على أن القرآن نزل من عالم آخر - كما يقول السبحاني - فضلاً عن أنّه نزل من عند الله تعالى، ولذا لا نطيل في ردّ هذا الوجه بعد اشتراكه مع الوجه المتقدم في كثير من موارد الضعف والاشكال، ونكتفي بما ذكره السيد المرتضى في «الذخيرة» حيث قال في ردّه:

«أما من ذهب في جهة اعجاز القرآن إلى النظم، فربما فسّر الذاهب إلى هذا المذهب قوله بما يرجع إلى الفصاحة والمعاني دون نفس النظم المخصوص، ومن فسر بما يرجع إلى الفصاحة كان قوله داخلاً فيما تقدم فساده.

وإن صرّح بأنه أراد الطريقة والأسلوب فقد بينا أن طريقة النظم لا يقع فيما تزايد ولا تفاضل ولا يصح التحدي فيها إلا بالسبق إليها وأن السبق لابدّ فيه من وقوع المشاركة بمجرى العادة، وأن كل نظم من النظوم لا يعجز أحداً عن احتذائه ومساواته، وان كان بكلام قبيح خال من فصاحة. ومضى من هذا ما فيه كفاية»[1].

3 - هل أن الإعجاز القرآني هو الإنباء بالمغيبات؟!

يقول الطباطبائي في معرض حديثه عن هذه الجهة الإعجازية:

«وقد تحدّى - القرآن - بالاخبار عن الغيب بآيات كثيرة، منها اخباره بقصص الأنبياء السالفين وأممهم كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[2].

(1) السيد المرتضى - الذخيرة - ص 402 - ط جامعة المدرسين.
(2) سورة هود، الآية: 49.

ومنها الإخبار عن الحوادث المستقبلة كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝﴾[1] وقوله تعالى في رجوع النبي إلى مكة بعد الهجرة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[2]... ومن هذا الباب آيات أخر في الملاحم نظير قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[3]...، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[4] ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات التي تنبيء عن الحوادث العظيمة التي تستقبل الأمة الإسلامية أو الدنيا عامة بعد عهد نزول القرآن)[6].

ويقول الإمام رشيد رضا في «المنار»:

«الوجه الثالث: اشتماله على الإخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم، وقد تقدم بعض الكلام فيه، ومن حاضر في عصر تنزيله كقوله تعالى ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾... وكقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾..» - ثم ذكر جملة من الآيات التي تخبر بالمغيبات كما ذكر الطباطبائي آنفاً - ثم قال: - فهذه الأخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبينا وكون القرآن من عند الله

(1) سورة الروم، الآيتان: 2 - 3.
(2) سورة القصص، الآية: 7.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 95.
(4) سورة النور، الآية: 55.
(5) سورة المائدة، الآية: 54.
(6) نفس المصدر - ص 64 (باختصار).

تعالى إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه، ولا يمكن معارضتها بما يصح بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال الكهّان والعرافين والمنجمين، فان كذب هؤلاء أكثر من صدقهم، إن صح تسمية ما يتفق لهم صدقاً منهم»[1].

ونلاحظ عليه:

1 - إن مسألة الإخبار بالغيب لا تختص بالقرآن الكريم ولا تعدّ معجزة بحدّ ذاتها، فالكثير من المرتاضين والعرفاء والكهنة كانوا يخبرون بالغيب، والقرآن نفسه يشير إلى طرف منها هي قصة أم موسى لما خافت على إبنها من القتل فألقته في أليم:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[2].

ويذكر المفسرون في شرح هذه الواقعة أن كهنة فرعون وعلماء البلاط كانوا قد اخبروا فرعون بأنه سيولد من بني إسرائيل من يطيح بعرشك، فأمر بقتل جميع أطفال بني إسرائيل حين الولادة، والقصة مفصلة فراجع.

وعلى كل حال لا يكون الإخبار بالمغيبات دليلاً عقلياً على أن هذا الخبر الغيبي أنما هو من الله تعالى، بل من مصادر أخرى كما كان الكهنة يأخذونه من الجن، والقرآن يقرّ هذه الحقيقة وأن بعض الجن كانوا يسترقون السمع من الملأ الأعلى:

(1) الإمام رشيد الرضا - المنار - ج 1 - ص 170.
(2) سورة القصص، الآية: 7.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1].

وأما انقطاع الكهانة واستراق السمع من قبل الجن بعد البعثة فهو من ادعاء القرآن نفسه، ومعلوم أنّه لا يمكن قبول هذا الادعاء ما دمنا لم نصل بعد إلى مرحلة التسليم بأنه من الله تعالى، أي أن الاستناد في عملية الاستدلال على النصوص القرآنية يوقعنا في ورطة الدور الباطل.

2 - يذكر العلامة من موارد الإخبار بالغيب قصص الأنبياء، والآية المذكورة صريحة في ذلك، ولكنها لم تورد هذه القصة بعنوان معجزة، ومجرد أن النبي ﷺ لم يكن يعلمها ولا قومه لا يعد بحدّ ذاته إعجازاً ينبغي للآخرين التسليم به، فبإمكانهم أن يقولوا أنّه اكتسب أصولها من علماء أهل الكتاب، وبعد تعديلها وتهذيبها طرحها بالشكل المذكور في القرآن، أو أنّها من بنات أفكاره وخاصة مع عدم وجود ما يؤيد صحة هذه الأخبار والقصص.

وإلى هذا المعنى ذهب السيد المرتضى في نقضه على الإعجاز بالمغيبات، وقال:

«وأيضاً فان الأخبار عن الغيوب في القرآن على ضربين: خبر عن ماض، وخبر عن مستقبل. فالأول الأخبار عن أحوال الأمم السالفة، والثاني مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ

(1) سورة الجن، الآية: 9.
(2) سورة الفتح، الآية: 27.

ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾﴾[1] وأمثال ذلك من الأخبار التي وقعت مخبراتها موافقة للإخبار عنها.

فأما القسم الأول: فهو خبر عن أمور كائنة ومشهورة شائعة، وذلك لا يسمّى خبراً عن غيب، وليس في ذلك إلا ما يمكن للمخالف أن يدّعي أنّه مأخوذ من الكتب أو من أفواه الرجال... والقسم الثاني: إنما يكون دالاً إذا وقع عن مخبر مطابق للخبر وقبل أن يقع ذلك لا فرق في الخبر بين أن يكون صدقاً أو كذباً، ومن المعلوم أن الحجة بالقرآن كانت لازمة قبل وقوع مخبرات هذه الأخبار»[2].

3 - ويذكر العلّامة الآية الشريفة التي تخبر عن انتصار الروم على الفرس كنموذج للإعجاز الغيبي في القرآن الكريم، وفيه مع ما تقدم من الإشكال، أن التاريخ المستقل لم يحدثنا بحادثة من هذا القبيل وقعت في ذلك الزمان الخاص إلّا ما ورد في كتب المسلمين، ومعلوم أنّها لا تكون حجة لإثبات المطلوب، لأنها تخبر عن القرآن وبدافع من ايمان المسلمين بصحة جميع ما ورد في الآيات من أخبار، وهو من الدور الباطل، أي أن المفروض اثبات هذه القضية من خلال المصادر التاريخية المستقلة.

4 - أما الآية التي تتحدث عن عودة النبي ﷺ إلى مسقط رأسه فغير واضحة المفهوم وغير صريحة في بيان المراد، ولو أن النبي لم يوفق للعودة إلى مكة لرأينا أن المفسرين احتالوا لتأويلها

---

(1) سورة الروم، الآيات: 1 - 3.
(2) السيد المرتضى - الذخيرة - ص 402 - ط جماعة المدرسين - قم.

طرقاً متنوعة مما تحتمله الآية، كأن يقولوا أن المقصود بالمعاد هو لقاء الله وما إلى ذلك.

5 - وأضعف ما في هذا الباب من الشواهد هو ما أورده من قصة يأجوج ومأجوج بعنوان انها ملاحم غيبية، ولا ندري ما ربطها بالإعجاز القرآني؟ وهل يمكن عقلاً قبول هذه الأخبار والملاحم التي ينفرد القرآن بها بعنوان معجزة؟

6 - وأضعف منه ما ذكر من وعد الله تعالى للذين آمنوا انه سيستخلفهم في الأرض، لعدم تقييد هذا الوعد بمدة معينة من الزمان، فيبقى الوعد مفتوحاً إلى آخر الزمان، وفي أي عصر تحققت دولة صغيرة للمؤمنين يقال أن الوعد القرآني قد تحقق.

7 - ونفس الاشكال يرد على ما ذكره من الآية الكريمة التي تعد المؤمنين أن الله سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه، بل في هذه الآية نجد أن الوعد الإلهي مشروط بـ ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾[1] فإذا لم يتحقق الشرط لم يتحقق المشروط وينتفي موضوع الوعد من الأساس، بل يمكن لأحد أن يقول أنّه قد ثبت ارتداد أكثر المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، وخاصة أبان حروب الردة، ولكن هذا الوعد الإلهي لم يتحقق!!

طبعاً هذه الاية محل نقاش كثير بين الشيعة والسنة، فالشيعة توردها في حق عليّ عليه السلام واصحابه، وأهل السنة يوردونها في ابي بكر حيث قاتل أهل الردة.

8 - أنّه لا يعقل أن يتحدى القرآن الكريم الناس في ذلك

(1) سورة البقرة، الآية: 217.

الزمان بما سوف يثبت صحته بعد عشرات السنين. فظاهر التحدي القرآني الفعلية في مسألة الاعجاز، ودعوة الناس إلى الإتيان بسورة من مثله تكاد تكون صريحة في أن التحدي واقع في زمن نزول آيات التحدي، وهذا يدل دلالة أكيدة على أن منظور القرآن من كونه معجزة شيئاً آخر غير الأخبار بالغيب.

9 - إن التحدي وقع بجميع سور القرآن لا على التعيين، فقد طُلب من العرب الإتيان بسورة واحدة من مثله، ومعلوم أن الكثير من سور القرآن خالية من الأخبار بالغيب، يقول السيد المرتضى:

«والذي يبطل هذا أن كثيراً من القرآن خال من خبر بغيب، والتحدي وقع في سورة غير معينة»[1].

4 - الإعجاز القرآني وعدم الإختلاف فيه!!

يقول العلّامة:

«وقد تحدى أيضاً بعدم وجود الإختلاف فيه، قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2]. فإن من الضروري أن النشأة المادة، والقانون الحاكم فيها قانون التحول والتكامل، فما من واحد منّا إلّا وهو يرى نفسه كل يوم أفضل من أمس، ولا يزال يعثر في الحين الثاني على سقطات في أفعاله وعثرات في أقواله الصادرة منه في الحين الأول.

(1) المصدر السابق، ص 402.
(2) سورة النساء، الآية: 82.

وهذا الكتاب جاء به النبي ﷺ نجوماً وقرأه على الناس قطعاً قطعاً في مدة ثلاث وعشرين سنة في أحوال مختلفة وشرائط متفاوتة في مكة والمدينة في الليل والنهار، والحضر والسفر، والحرب والسلم، ولم يقع في المعارف التي ألقاها والأصول التي أعطاها اختلاف بتناقض بعضها مع بعض وتنافي شيء منها مع آخر، ولو كان من عند غير الله لاختلف النظم في الحسن والبهاء والقول في الشداقة والبلاغة والمعنى من حيث الفساد والصحة ومن حيث الإتقان والمتانة»[1].

وقال في «المنار»:

«الوجه الرابع: سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف، خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2] وإننا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون، ثم يصححون ويبيّضون، ثم يطبعون وينشرون، ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ولا سيما إذا طال الزمان، وهذا أمر مشهور في جميع الأمم.

(فإن قيل) إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها بما يزعمون أنّه دفع الإيراد، وأظهر بطلان الانتقاد، وإن المسلم يقبل ذلك منهم تقليداً. وإن لم يكن في نفسه سديداً (قلت) إذا كانت

---

(1) نفس المصدر – ص 66 – بإختصار.

(2) سورة النساء، الآية: 72.

عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة، وإننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة القول - ولا إلى المقلدين من المسلمين وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين المستقلين من الفريقين نرى أنّه ليس في القرآن تعارض حقيقي معنوي يعد مطعناً صحيحاً فيه»[1].

ونلاحظ عليه:

1 - إن الإستدلال بالآية القرآنية على إثبات إعجاز القرآن من غريب الإستدلال، لأنه يستلزم الدور الباطل، ولابد في إثبات مثل هذه المعارف من التوسل بدليل خارج دائرة القرآن كما هو واضح، لأنه قبل إثبات المدعى كيف يصح الإستناد على موضوع البحث في إثبات نفسه، فإذا قيل أن الإستشهاد بالآية ليس من قبيل الإستدلال بها، بل من قبل المؤيد لحكم العقل قبل ذلك بعد وجود الإختلاف فيه، فحينئذ يقال بأن كل منصف إذا وضع مسبقاته العقائدية جانباً وحكم عقله في هذه المسألة بحياد تام وجد الكثير من الموارد المتباينة والمتناقضة في ظاهر القرآن الكريم:

فتارة يؤكد القرآن وجود الشفاعة للمخلوقين، وتارة ينفيها عن المخلوقين.

وتارة يقول بإمكانية رؤية الله وأُخرى ينفيها.

وتارة يقرر أنّه لا أحد يعلم الغيب إلّا الله، وتارة يستثني بعض الأنبياء والأولياء..

(1) الإمام رشيد الرضا - تفسير المنار - ج 1 - ص 171.

وتارة يقرر ضرورة قتال الكفّار والمنافقين، وأخرى يقرر المسالمة معهم..

وتارة يؤكد أن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأخرى يستثني الشرك..

وتارة يقرر أن الإنسان مختار، وأخرى يقرر أن مشيئة الإنسان بيد الله وتابعة لمشيئته..

وتارة يؤكد أن النبي معصوم وأنّه وحي يوحى، وأخرى يقرر أن الله غفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر..

وعشرات الموارد الأخرى، فإذا أخذنا بظاهر هذه الآيات لم يكن هناك بدّ من قبول حقيقة وجود الإختلاف فيه، وان سعينا إلى التوفيق بين هذه المتناقضات بتأويل الآيات، فكل كتاب من تأليف البشر يخلو من التناقض حينئذ، ولا يقتصر الأمر على القرآن حتى يعدّ معجزة له، وحتى الكتب التي ألفها فيلسوف أو متكلم أو عالم نفس طيلة حياته ورأينا فيها بعض التبدل في الأفكار والنظريات بالامكان التوفيق بينها بسلاح التأويل بحيث لا تعد اختلافاً أصلاً.

وبكلمة واحدة، أن القرآن بدون تأويل مليء بالتناقضات والإختلافات، ومع التأويل لا ميزة له على سائر الكتب فإنها تخلو أيضاً من الإختلاف والتهافت.

والغريب أن العلامة ينقل هذا الإشكال ولا يجيب عنه، وإنما يحيل القارىء إلى كتب التفسير ومواضع أخرى من كتابه «الميزان» حيث يقول:

«قلت: ما أشير إليه من المتناقضات والإشكالات موجودة فـ

كتب التفسير وغيرها مع أجوبتها ومنها هذا الكتاب، فالإشكال أقرب إلى الدعوى الخالية عن البيان» ويقصد بالأجوبة سعي المفسرين إلى التوفيق بين الآيات ورفع الإختلاف بإستخدام سلاح التأويل، في حين أن هذا ليس هو المقصود من الإشكال، فليس المراد هو عدم وجود الإختلاف حتى مع التأويل وأعمال الفكر في رفع التناقض، لأنه يستوي حينئذ القرآن مع غيره من مؤلفات البشر.

2 - لا يختلف اثنان من المفسرين أو العلماء على وجود اختلاف بيّن في الشكل والمحتوي وأسلوب الخطاب بين السور المكيّة والمدنية، وحتى نفس صاحب الميزان يؤيد هذه الحقيقة في بحث المكي والمدني، ومع ذلك نراه الآن ولتبرير عدم وجود الإختلاف يدعي عدم وجود الإختلاف في هذه الجهة أيضاً.

3 - ويقول السيد المرتضى في ردّ هذا الوجه من الاعجاز:

«وأما من ذهب في إعجازه إلى زوال الاختلاف عنه والتناقض مع طوله، وادّعى أن ذلك مما لم تجربه العادة في كلام طويل بمثله. والذي يبطل قوله: إنه لا شبهة في أن ذلك من فضائل القرآن ومن آياته الظاهرة، لكنه لا ينتهي إلى أن يدّعى أنّه وجه اعجازه وأن العادة انخرقت به، لأن الناس يتفاوتون في زوال الاختلاف والتناقض عن كلامهم، وليس يمتنع أن يزول عن الكلام ذلك كله مع التيقظ الشديد والتحفظ التام. فمن أين لمدعي ذلك أن العادة لم تجر بمثله؟

فأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فإنما هو جهة لعلمنا بالقرآن لو كان من عند غيره لكان فيه

اختلاف، وإنما رددنا على من قال إني أعلم بذلك قبل العلم بصحة القرآن وجعله وجه إعجازه»[1].

ومع قليل من التأمل في هذا الكلام يتضح انه لا يقوم على وجه وجيه من الردّ المقبول، فيبقى ما ذكرنا من الوجهين المتقدمين في إبطال هذا الوجه، أما الكلام في الآية الشريفة والمقصود من عدم وجود الاختلاف في القرآن فسيأتي بيانه في الفصل الثالث.

5 - القرآن والتحدّي بالعلم!

يقول العلّامة:

«وقد تحدّى بالعلم والمعرفة خاصة بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات، فإن الإسلام كما يعلمه ويعرفه كل من سار في متن تعليماته من كلياته التي أعطاها القرآن وجزئياته التي أرجعها إلى النبي، متعرّض للجليل والدقيق من المعارف الإلهية الفلسفية والأخلاق الفاضلة والقوانين الدينية الفرعية من عبادات ومعاملات وسياسات واجتماعيات وكل ما يمسّه فعل الإنسان وعمله، وقد بيّن بقاءها جميعاً وانطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور وكرورها»[4].

وقال في «المنار» في تقرير هذا المضمون الإعجازي:

---

(1) السيد المرتضى - الذخيرة - ص 403 - ط جماعة المدرسين.
(2) سورة النحل، الآية: 89.
(3) سورة الأنعام، الآية: 59.
(4) نفس المصدر - ص 92 - بتلخيص.

«الوجه الخامس: اشتماله على العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان؛ وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية، ومن الشرايع الوضعية، ومن الآداب الفلسفية، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية، من آمن منهم بكونه من عند الله تعالى أنزله على رسوله الأمي، ومن لم يؤمن بذلك، . .

ولا شك أن هذا الوجه من أهم وجوه الإعجاز، فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم، وما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكمالاً، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟»[1].

ونلاحظ عليه:

1 - ليس في الآية المذكورة إشارة إلى التحدي والتنوية بالإعجاز من هذه الجهة، فالآية تقول: (فيه تبيان لكل شيء) وهي إخبار عن حقيقة قرآنية لا أكثر.

2 - إن العلوم والمعارف القرآنية لا تتناول جميع العلوم

(1) الإمام رشيد رضا - تفسير المنار - ج 1 - ص 172.

والمعارف البشرية حتى تكون ظاهرة اعجازية، لأن من الواضح أن العلوم الطبيعية من قبيل الفيزياء والكيمياء والفلك والاحياء وأمثال ذلك أكبر من أن يسع كلياتها كتاب واحد، والآية الكريمة تصرح بأن كل ما يحتاجه البشر في طريق الكمال الإلهي والسلوك إلى الله الذي هو الهدف والغاية من القرآن موجود في هذا الكتاب السماوي، والعموم المذكور في الآية لابد وأن يتطابق مع الهدف من إنزال هذا الكتاب، ومن الواضح أن الهدف ليس هو تعليم البشر أنواع الصناعات والمهارات الدنيوية والعلوم الطبيعية، لأن الإنسان يكفيه عقله ودوافعه الدنيوية للسير به في هذا الطريق.

3 - من عجيب إستشهادات العلامة هو أنّه استشهاد بالآية ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] لإثبات المطلوب، في حين أن الآية تقرر حقيقة غيبية وأن كل حادثة تقع في عالم الخلق غير خافية عن علم الله، ومذكورة في عالم اللوح المحفوظ، أو لدى الملائكة وما إلى ذلك، وأين هذا من ذكرها في القرآن الكريم؟!

وهل يسع القرآن لإيراد كل هذه الأحداث اللامتناهية؟!

وهذا هو ما نقصده من العقل الديني الذي يغطي على العقل السليم ويمنعه من إدراك الحقائق، ويؤمن بالعلوم الدينية الموروثة قبل غربلتها وتهذيبها.

4 - إن إدعاء أن الإسلام فيه جميع المعارف السياسية والإجتماعية والحقوق والقوانين والأخلاق وما إلى ذلك هو ادعاء

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 59.

لا يقوم عليه برهان لا من خارج دائرة الدين ولا من داخلها. وقد اثبتت التجربة الإسلامية في ايران خواء هذا التصور الشمولي عن الدين الإسلامي وأنّها محتاجة في جميع انساقها الإجتماعية والإقتصادية ومنظومتها الحقوقية والقضائية إلى المعارف البشرية والتجارب الحضارية والثقافية للشعوب المتقدمة، فبعد أكثر من عشرين عاماً على شروع هذه التجربة الإسلامية نجد أن القوانين الحاكمة والمناهج السائدة في النظام الإقتصادي والسياسة الخارجية والعلاقات التجارية وغير ذلك هي نفسها التي تحكم الروابط البشرية المعاصرة ونتاج عقل بشري خالص.

وعلى سبيل المثال سعى الخبراء في النظام الإقتصادي في الحكومة الإسلامية بكل جهدهم لحذف الربا من البنوك وممارسة تجربة البنك اللاربوي فلم يوفقوا في ذلك وما زالت البنوك في ايران تتعامل بالربا والفائدة.

تصوير آخر للتحدّي بالعلم:

ويذكر العلماء وجهاً آخر للتحدّي بالعلم أو ما يسمى بالاعجاز العلمي، يقول الإمام الخوئي في تقرير هذا الوجه:

«6 - القرآن وأسرار الخليقة: أخبر القرآن الكريم في غير واحد عما يتعلق بسنن الكون ونواميس الطبيعة وغيرها مما لا سبيل إلى العلم به في بدء الإسلام إلّا من ناحية الوحي الإلهي، وبعض هذه القوانين وان علم بها اليونانيون في تلك العصور، أو ممن لهم سابق معرفة بالعلوم، إلّا أن الجزيرة العربية كانت بعيدة عن العلم

بذلك، وان فريقاً مما أخبر به القرآن لم يتضح إلّا بعد توفّر العلوم وكثرة الاكتشافات، وهذه الأنباء في القرآن كثيرة..»[1].

ثم يورد عدة آيات كشاهد على هذا المدعى، منها قوله تعالى:

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾[2] للدلالة على أن لكل نبات وزن خالص.

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[3] للدلالة على تأثير الرياح في تلقيح النباتات.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ﴾[4] للدلالة على قانون الزوجية.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾[5] للدلالة على كروية الارض.

ويذكر الشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره الموضوعي: «نفحات القرآن» آيات أخرى في هذا الصدد منها:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾[6] للدلالة على قانون الجاذبية.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾[7] إشارة إلى بداية خلق العالم.

---

(1) الإمام الخوئي - البيان في تفسير القرآن - ص 71.
(2) سورة الحجر، الآية: 19.
(3) سورة الحجر، الآية: 15.
(4) سورة الرعد، الآية: 3.
(5) سورة الرحمن، الآية: 17.
(6) سورة الرعد، الآية: 2.
(7) سورة فصلت، الآية: 11.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1] للإشارة إلى حركة الأرض ودورانها.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2] وفيها تصريح بحركة المنظومة الشمسية.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[3] وفيها دلالة على توسّع السماء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[4] للاشارة إلى وجود الحياة في الكرات السماوية الأخرى.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾[5].

ونكتفي بهذا القدر من الآيات التي استشهدوا بها لإثبات هذا المطلب حرصاً على الاختصار وإيراد ما هو واضح البطلان من الاستشهادات الأخرى.

المناقشة:

يمكننا مناقشة هذا الادعاء بطريقين:

1 - الجواب بالحلّ

وهو أن نقوم بتحليل المراد من الآيات المذكورة لنرى مدى

---

(1) سورة النمل، الآية: 88.
(2) سورة يس، الآية: 38.
(3) سورة الذاريات، الآية: 47.
(4) سورة الشورى، الآية: 29.
(5) سورة القيامة، الآيتان: 3 - 4.

صلاحيتها لاثبات المدعى المذكور، وهو الإعجاز العلمي، فنقول:

أما «الآية الأولى» في إثبات أن لكل شيء في عالم النبات وزن خاص ونسبة معينة على مستوى العناصر والمواد الأولية الدخيلة في تركيب النبات، فلا يفهم مقصود هذا العالم الجليل في كون هذا الكشف المكشوف لدى جميع الناس معجزة علمية، لذا نورد نص كلامه لعل القاريء الكريم يكتشف ما عسر علينا ادراك المعجزة فيه، قال رحمه الله بعد ذكر الآية الشريفة:

«فقد دلّت هذه على أن ما ينبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من انواع النبات مركّب من أجزاء خاصة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك مركباً آخر (ثم ماذا؟)، وأن نسبة بعض الأجزاء إلى البعض من الدقة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدق الموازين المعروفة للبشر» - وهو كما ترى!!

أما «الآية الثانية» فان المفسرين الأقدمين كما يقول السيد صاحب البيان حملوا اللقاح في الآية على معنى الحمل، وفسّروا الآية المباركة بحمل الرياح للسحاب أو المطر، ولكن مكتشفات علماء النبات في العصر الحديث يقررون مهمة الرياح في تلقيح النبات، إلّا أن هذا المعنى المذكور للآية لا أظنه قد خفي على المزارعين في قديم الأيام فضلاً عن المحققين، وعلى أية حال فإن أحد المعنيين للآية كان واضحاً لدى القدماء (سواء كان تلقيح السحاب أو النباتات) وبذلك يسقط الاستشهاد بالآية على المطلوب.

«الآية الثالثة» تقرر قانون الزوجية في النبات، وهناك آيات

أخرى تذكر هذا القانون بصفة شمولية لجميع المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] -.

ولكن ليس في هذا المعنى شيء من الإعجاز العلمي، ففي عالم النبات وبما أنّها تتمتع بروح الحياة فمن السهل قياس النباتات على الحيوانات والإنسان حيث يشتركون جميعاً في روح الحياة. وبما أن الزوجية مشهودة في كل من الإنسان والحيوان، فكذلك للنبات وخاصة بعد وجود قانون الزوجية في النخل الذي هو من أفراد النبات.

ثم إنه لم يثبت هذا القانون علمياً في جميع الكائنات، أي لم يستطع العلم اكتشاف أن هذا القانون سار في جميع الكائنات على مستوى الاستقراء التام، بل اكتشف البعض منها مما لا يحقق صفة الشمولية لهذا القانون بصورة جازمة، بل أن موارد كثيرة ثبت عدم صحة هذا القانون فيها، من قبيل أنواع البكتريا الاحادية الخلية التي تتكاثر بوسيلة الانشطار وبعض الديدان التي تعيش في أمعاء الإنسان والحيوان (الدودة الشريطية) أو عالم النجوم والكواكب والمجرات السابحة في الفضاء اللامتناهي، فاين الذكر منها وأين الأنثى، وكذلك الكلام على مستوى الملائكة التي ورد أنّها من جنس واحد، فلا هي مذكر ولا مؤنث، وغير ذلك.

«الآية الرابعة» التي استدل بها على كروية الأرض باعتبار أن لكل جانب منها مشرقاً ومغرباً، ولو كانت مسطحة لكانت ذات مشرق واحد ومغرب واحد كذلك. ولكن هذا المعنى أيضاً لا

(1) سورة الذاريات، الآية: 49.

يصلح لكونه معجزة علمية، فالعلماء وخاصة علماء الإغريق قبل ميلاد المسيح بعدة قرون اثبتوا كروية الأرض بالعديد من الأدلة كما نقرأ ذلك في كتب «ارسطو» وغيره من فلاسفة اليونان، وهذا المفهوم انتشر حتماً بين الناس بتطاول الزمان وتمادي الاعوام وتلاقح الحضارات، فلا يعتبر كشفاً علمياً للقرآن الكريم.

ثم إنه قد يكون المراد بالمشرقين والمغربين معان أخرى ذكرها المفسرون في أسفارهم ومسطوراتهم، منها: أن المراد مشرق الشمس والقمر ومغربهما، أو مشرق الشمس في الشتاء والصيف ومغربها كذلك حيث تشرق الشمس في الشتاء من مكان غير مكان شروقها في الصيف، وكذلك الغروب.

والآية لا تعين المراد منها وأنّه الأول من هذه المعاني حتماً.

«الآية الخامسة» يستدل بها المدّعي للاعجاز العلمي على أساس كشفها عن قانون الجاذبية بتقريب أن العمد الذي لا يرى في رفع السماء هو عمد الجاذبية بعد أن أثبت العلم الحديث أن الأجرام السماوية خاضعة في حركتها ودورانها لتأثير الجاذبية، ولكن هذا الادعاء بعيد عن مفهوم الآية، بل تحميل صريح على معناها، فالآية بقولها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1] تلفت ذهن الإنسان إلى القدرة الإلهية في خلق السموات وتوحي إليه بعظمتها وأنّه كيف يعجز الإنسان عن رفع سقف بيته أو خيمته بدون عمد رغم تفاهة هذا الشيء وخفته بينما ترتفع السماء مع كل

(1) سورة الرعد، الآية: 2.

ما فيها من أجرام عظيمة وشموس منيرة من دون عمد!! ألا يكون ذلك دليل القدرة الإلهية العظيمة التي تقف وراء هذه الظاهرة؟!

فالغاية المقصودة من هذه الآية كما في سائر الآيات المماثلة هي تبيين عظمة القدرة الإلهية المدبّرة لهذا العالم لا أكثر، ولذلك تصرح الآية «الله الذي رفع..»، فلو كان المقصود الإشارة لقانون الجاذبية لكانت الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾[1] اشارة إلى قانون ضغط الهواء الذي يستفاد منه في تحليق الطائرات، وقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[2] اشارة إلى قانون ضغط الماء.. وهكذا. والحال أن هذه التحميلات غير مقصودة من الآيات قطعاً.

والآخر أن تشبيه الجاذبية بالعمد لا يخلو من غرابة، فمتى كانت الجاذبية على شكل العمود؟ ولو كان التشبيه بالسلسلة كان أقرب حتماً، فالعمود يشكل لما يحمله قوة دافعة تمنعه من السقوط، والجاذبية قوة جاذبة للشيء تمنعه من الابتعاد والفرار.

«الآية السادسة» التي تتحدث عن بداية خلق السموات والأرض وأنّها كانت على شكل دخان كما هو المقبول في الأوساط العلمية الفلكية في العصر الحديث، فهي بدورها لا تشكل كشفاً علمياً خارقاً، لأن علماء الفلك في هذا المجال لا يتحدثون عن قضية علمية مسلّمة لا تقبل النقاش، بل هي احدى الفرضيات المقبولة إلى جانب فرضيات أخرى، أي إن أدوات العلم الحديث قاصرة

(1) سورة الملك، الآية: 19.
(2) سورة فاطر، الآية: 12.

عن تناول مثل هذه المواضيع المتوغلة في الزمن بالتجربة المنتجة لليقين والجزم، فتبقى المسألة مجرد فرضية علمية مظنونة كما في نظرية زحزحة القارات، وتكامل الانواع لداروين، وانفجار الشمس وتولّد الكواكب السيارة وامثال ذلك.

«الآية السابعة» التي استدل بها على إخبار القرآن الكريم بحركة الأرض ودورانها من خلال التصريح بحركة الجبال:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(1).

ولكن هذه الآية كمثيلاتها لا تعدّ فتحاً علمياً وكشفاً إعجازياً للقرآن الكريم، لأن ادنى تصور لحركات الاجرام السماوية الدائبة ودورانها في الفضاء يمتد هذا التصور إلى الأرض كأحد هذه الكرات السابحة في الفضاء، أي انه لا يحتاج إلّا إلى التفاتة صغيرة من كل إنسان متدبّر في أمر السماء ونجومها، وأما القول بسكون الأرض فلم يكن في ذلك الزمان كحقيقة مسلّمة إلّا ما كان من نظرية بطليموس في محورية الأرض لجميع الكواكب والاجرام السماوية، وسكونها ودوران الأفلاك حولها. فليس القول بحركة الأرض دورانها بالشيء الجديد الذي افرزته النهضة العلمية في أوربا، وما كان من «كوبرنيك» البولندي ونظريته في دوران الأرض حول الشمس وإبطاله لنظرية بطليموس السابقة هو أنّه طرح هذه المسألة بصورة مستدلّة وأثبت ذلك بالبراهين العلمية، لا أنّه مبتكر هذه الفكرة.

على أنّه لو كانت الأرض ساكنة واقعاً لرأيت هؤلاء العلماء

(1) سورة النمل، الآية: 88.

والمفسرين المحدثين يتحركون في تفسيرهم لهذه الآية بما يوافق سكونها أيضاً، فصدر المتألهين مثلاً يستدل بهذه الآية على نظريته في الحركة الجوهرية، وآخرون فسّروها في حركة الجبال يوم القيامة والآية لا تأبى الحمل على كلٍّ من هذه التفاسير المذكورة.

ثم إن لقائل أن يقول إن الجبال لا تتحرك واقعاً، فما نسب إلى الجبال من الحركة والسير في الآية لابد أن يحمل على المجاز على أساس الحركة التبعية للأرض، فالارض هي التي تسير واقعاً لا الجبال، وحينئذ وبارتكاب المجاز في المعنى لا تكون الآية صريحة على حركة الأرض وان كان هذا التفسير هو الاقرب والافضل.

«الآية الثامنة» استدل بها على حركة الشمس مع منظومتها في ضمن حركة المجرة «مجرة درب التبانة» مما يحقق نصراً علمياً للقرآن لم يكن قد اكتشف في السابق.

وأنت ترى ما في هذا الكلام من تحميل للآية، فحركة الشمس محسوسة من الشرق إلى الغرب، ولم يقل أحد بأن الشمس ثابتة اطلاقاً، أما أنّها كيف تجري وتتحرك؟ هل حول الأرض، أو حركة مركزية حول نفسها، أو مع منظومتها حول مدار معين في المجرة العظمى؟ فهذا لم تتحدث عنه الآية، ومن التعسّف أن نحمّل الآية ما ليس فيها.

«الآية التاسعة» تصرح بأن الله تعالى خلق السموات بقدرته، وهو مستمر في توسعتها، أو أنّه سوف يقوم بتوسعتها في اللاحق كما هو مقتضى الفعل المضارع «وانا لموسعون»، وهذا المعنى كما يدعي صاحب النفحات والتفسير الأمثل وغيره من العلماء أنّه موافق

لآخر الكشوفات العلمية في عالم الفلك، حيث يؤكد بعض علماء الفلك بأن العالم في حالة توسعة مستمرة.

وهذا الادعاء كما ترى غير مفهوم من الآية حتماً، أي أن الآية لا تصرح بأن عملية التوسعة هي عملية فعلية، بل جاءت بصيغة اسم الفاعل، فيحتمل أن التوسعة تتحقق فيما بعد، كأن تقع يوم القيامة.

مضافاً إلى أننا قلنا أن هذه الكشوفات العلمية لا تتعدى مستوى النظرية وتفتقد إلى ادوات الاثبات العلمي. والعلماء لا يطرحونها كأمر مسلّم لا يمكن الخدشة فيه، وحتى لو ثبت قول بعض علماء الفلك كجورج كاموف وغيره بأن المجرات السماوية تبتعد عن مركز العالم باستمرار، فان زيادة الفواصل بين الكواكب والمجرات العظيمة لا يعني اتساع السماء لو أخذنا بالنظرية المشهورة في لا محدودية العالم، فاللامحدود واللامتناهي لا يعقل في حقّه الاتساع إلّا على سبيل المجاز بأن يكون المراد من التوسعة المذكورة سعة الفاصلة بين الاجرام السماوية لا سعة نفس السماء.

«الآية العاشرة» وفيها يُدّعي أنّها تحكي عن وجود عنصر الحياة في الكرات السماوية كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾[1] على أساس أن «فيهما» يعود إلى السماوات والأرض، ولكن متى أثبت العلم الحديث وجود الحياة والكائنات الحيّة في الكواكب السماوية حتى يدّعي هذا المفسّر المحترم بأن هذه الآية تعتبر كشفاً علمياً اعجازياً للقرآن الكريم؟

(1) سورة الشورى، الآية: 29.

«الآية الحادية عشر» ادّعي أنّها تشير إلى بصمات الأصابع حيث ثبت أن لكل فرد من أفراد البشر بصمات خاصة لا يشاركه فيها أحد، وهذا الكشف العلمي لم يكن في سالف الزمان وقديم الأيام، بل هو من إنجازات التطور العلمي الحديث وخاصة العلم الجنائي، والقرآن سبق العلم الحديث بعدّة قرون في هذا الكشف.

ولا أعلم ما إذا كان هؤلاء المدّعون جادّين في دعواهم هذه، أم يخاطبون أنفسهم والآخرين بلغة الاحاسيس المذهبية؟ فلو خلينا مع الآية ومن دون تصور لهذا الكشف الحديث فان المعنى سيكون بقرينة السياق للآية أن الله تعالى سوف يجمع عظام الإنسان يوم القيامة ولا يترك منها شيئاً حتى عظام الأنامل التي هي أصغر العظام في بدن الإنسان، فهي تؤكد للمنكرين والنافين للبعث بأن الله سيعيد الإنسان بكامل اجزاء بدنه، صغيرها وكبيرها:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾(1).

وأين هذا من الكشف المذكور في أن بصمات كل فرد تختلف عن الأفراد الآخرين؟! أي أن هذا المعنى المذكور آنفاً يجتمع مع تشابه البصمات لافراد البشر كما يجتمع مع اختلافها، لأنه أساساً غير ناظر إلى اختلاف البصمات وتماثلها كما هو واضح، ولا نطيل أكثر في ردّ هذه المزاعم والتصورات الموهومة التي لا يتحرك اصحابها من موقع الامانة العلمية والحياد العقلي لدراسة القضايا الدينية، بل ينطلقون من موقع الحسّاسية المذهبية والعقل الديني

(1) سورة القيامة، الآيتان: 3 - 4.

لإثبات ودعم ما آمنوا به سابقاً، فتكون النتيجة تشويه حقائق الدين وإدخال ما ليس في الدين في الدين.

2 - عدم معقولية التحدّي العلمي

أساساً لا يعقل أن يتحدى القرآن العرب في صدر الإسلام بأن يأتوا بمثله من حيث الإعجاز العلمي الذي سوف يثبت صحته بعد أكثر من الف سنة، فمثل هذه الدعاوي لو فرض صحتها لم تكن مورد نظر القرآن الكريم في دائرة التحدي قطعاً.

3 - الجواب بالنقض

أصحاب العقل الديني الذين يسعون دائماً إلى الدفاع عن معتقداتهم الدينية بشتى الوسائل خوفاً على ايمانهم من الإهتزاز والسقوط في مقابل الحقيقة، ويغفلون أو يتغافلون عن قضية مهمة. وهي أن كل سلاح يستخدمونه لإثبات حقانية مذهبهم إذا لم يكن قائماً على أساس الحق، فهو سلاح ذو حدين وذو وجهين، وبامكان المخالف أن يستخدمه في تزييف حقائق الدين وثوابت المذهب التي يؤمن بها الإنسان الملتزم، وهذا هو السبب الذي دفعنا لتأليف هذا الكتاب، وذلك من أجل تزييف وإزاحة ما تراكم على حقائق الدين من أدلة واهية وتخرصات ذهنية عقيمة ظن علماء الكلام والمفسرون أنهم يدفعون بها شبهات المنكرين ويجيبون بها على استفهامات المخالفين. فاذا بهم يدفنون الحقيقة الناصعة تحت نفايا عقولهم وركام أفكارهم، في حين أن الحق بنفسه كفيل بازاحة الوهم والشبهة فيما لو ظهر للناس على حقيقته، فالنور لا يطرد الظلام، بل أن نفس وجود النور يعني انعدام الظلام، كما يصرح

القرآن بهذه الحقيقة المهمة بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1] فالحق لا يقوم بالقضاء على الباطل وإزهاقه، بل أن الباطل سيضحى زاهقاً بمجرد حضور الحق.

وعلى سبيل المثال فقد أورد الفلاسفة وعلماء الكلام في العديد من الأدلة العقلية لاثبات وجود الله تعالى، في حين أنّها قضية وجدانية بحتة وليس للعقل المجرد أو الديني من سبيل إلى ادراكها فضلاً عن اثباتها. ولكننا رأينا كيف أنهم توسّلوا بهذا العقل البشري الناقص في اثبات الحقائق الوجدانية، فكانت النتيجة أن المنكرين استخدموا نفس الوسيلة لاثبات عدم وجود الله وإبطال أدلة الموحّدين.

ونفس الكلام يأتي في مجال العدل الإلهي وحرية الإنسان حيث تمسك الشيعة وأهل السنة بالأدلة العقلية والنقلية لتأييد مذهبهم الموروث وتزييف أدلة الطرف المقابل، والحال أن مسألة العدل أو الحرية هي من المسائل الوجدانية التي يدركها الإنسان بوجدانه من دون تدخل العقل والنقل في ذلك.

وسيأتي نفس الكلام في الإمامة، فالشيعة مثلاً يتمسكون دوماً بالأدلة النقلية والروايات الكثيرة في دعم وجهة نظرهم وإثبات أن الحق مع الإمام علي عليه السلام دون غيره من الصحابة، في حين أن الطرف المقابل لديه من الروايات والأحاديث المنسوبة إلى النبي في إثبات وجهة نظرهم أكثر مما لدى الشيعة، فان قيل أنّها روايات مجعولة، لقالوا مثل ذلك في روايات الشيعة، أو انها

(1) سورة الأنبياء، الآية: 18.

على الأقل روايات معتبرة في ذلك المناخ الديني، ولا يصح للشيعي أن يطعن بروايات الطرف المقابل وهو يعلم كثرة الوضع والاختلاق في مذهبه.

نعود إلى أصل الموضوع لنؤكد - كما سيأتي - أن القرآن حقيقة وجدانية صرفة والدليل على النبوة ينبغي أن يمرّ من قناة العقل الوجداني، فلا فائدة في تجميع الادلة العقلية لإثبات حقّانية النبي والقرآن، لأن الخصم سوف يستخدم الدليل ذاته في تزييف هذه الحقائق الدينية، ومنها المعجزة القرآنية على مستوى الكشوفات العلمية، وقد رأينا وهن ما يتمسك به أصحاب العقل الديني في إثبات المعجزة العلمية للقرآن، وبامكان المخالف أن يستخدم نفس هذا الدليل لإبطال الحقيقة القرآنية وأن هذا الكتاب هو من الله تعالى، وذلك بالبحث والتنقيب عن الآيات القرآنية المتقاطعة مع الكشوفات العلمية الحديثة وهي ليست بأقل مما استشهد بها الموافق في دعم وجهة نظره، وعلى سبيل المثال قوله تعالى:

1 - ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1] حيث تصرح الآية بأنّ الأرض مسطحة وليست كروية.

2 - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[2] وهذه المقولة تتفق مع نظرية بطليموس القديمة في الافلاك السماوية، وقد أثبت العلم الحديث بطلانها وأن السماء واحدة لا أكثر.

(1) سورة الغاشية، الآية: 20.
(2) سورة الملك، الآية: 3.

3 - ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

فهذه الآية ومثلها آيات أخرى تصرح بأن ظاهرة الشهب والنيازك معلولة لصعود الشياطين إلى السماء ليستمعون إلى حديث الملائكة - كما ورد في سورة الجن - والحال أن العلم الحديث أثبت أن هذه الظاهرة الطبيعية معلولة لجاذبية الأرض، وأن الشهب والنيازك ما هي إلّا أحجار متناثرة في الفضاء الفسيح المحيط بالكرة الأرضية. وعندما يقترب أحدها من جو الجاذبية الأرضية ينجذب إليها بسرعة خارقة ولدى اصطدامه بالغلاف الجوي للأرض يحترق ليكون على شكل شهاب.

4 - ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾[2] وآيات أخرى مماثلة حيث تقرر أن الظلال يسجد لله مع أن حقيقة الظل أمر عدمي، أي عدم النور، فما نرى من ظلالنا على الأرض هو في حقيقته عدم وصول النور إلى الأرض لوجود الحاجب والمانع، فما معنى أن يقال أن الظل يسجد لله؟

5 - ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3] الظاهرة في مقولة التجسيم، مع أن الله تعالى منزّه عن الجسم والمادة قطعاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[4] أو ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5] وغيرها من الآيات المجسّمة.

---

(1) سورة الملك، الآية: 5.

(2) سورة النحل، الآية: 48.

(3) سورة الفتح، الآية: 10.

(4) سورة الأعراف، الآية: 54.

(5) سورة الفجر، الآية: 22.



6 - ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾[1].

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾[2].

حيث تصرّح هذه الآيتين على وجود بحر ماء عذب، وإلى جنبه بحر ماء مالح بحيث لا يختلط الماء العذب بالمالح أبداً، وكان القدماء يتصورون وجود هذان البحران في مكان مّا من الدنيا ولكن الواقع ومكتشفات العلم خيّبت ظنونهم وأوهامهم، فلا يوجد مثل هذان البحران على مستوى الواقع الخارجي، وبالتالي وقع المفسّرون الجدد في حيص بيص في تأويل مثل هذه الآيات.

ولا نريد أن نطيل في ذكر النقوض العلمية في ردّ مزاعم اتباع التراث الديني لأن الغرض يتحقق بذكر نماذج قليلة. رغم أن هذه النقوض لها جواباتها أيضاً وليست بالشبهات المستعصية على الحلّ، ولكن الحلّ لا يتأتى إلّا باستخدام سلاح التأويل وصرف النظر عن الأخذ بالظواهر، فاذا كان الأمر كذلك فمن الأجدر بنا أن لا نرد هذا المورد في اثبات المعجزة القرآنية، لأن سلاح التأويل ذو حدّين كما تقدم، فتارة يكون لك وأخرى عليك.

وسيقول بعضهم أن فلان يطرح الشبهات ليوهن من عقائد الناس، ولكن الصحيح أن الجيل المعاصر بدأ يقرأ الدين بعينين مفتوحتين. وسواء شئنا أم أبينا فسوف يصطدم بهذه الشبهات وتثور في ذهنه أكثر

(1) سورة الرحمن، الآيتان: 19 - 20.

(2) سورة الفرقان، الآية: 53.

من علامة استفهام حول صحة معتقداته ومفاهيمه الدينية بخلاف الأجيال السابقة التي كانت تمرّ على الثوابت الدينية مغمضة العيون وتتهم عقولها على حساب الحفاظ على إيمانها، فاذا لم نسبق الشباب الواعي والمثقف في حلّ المشاكل المعرفية التي تواجههم لدى قراءتهم للتراث الديني فسوف يتوجهون إلى مصادر أخرى للعثور على الجواب وحل المشكلة، وتلك المصادر والمذاهب الفكرية مخالفة لنا بالاصول والفروع، ولا يؤمن معها على إيمان الجيل الجديد وسلامة فطرته ودينه وأخلاقه، ولهذا آثرنا أن نقوم بحل هذه المشكلة لعدم عثورنا على جواب مقنع في كتب الأصحاب.

حلّ النقوض:

إن أكثر النصوص القرآنية المخالفة في ظاهرها للثوابت العقلية والعلمية لا تشكل معضلة في واقعها الديني والعقلي بعد قبول عنصر التأويل واتساع اللغة لممارسة المجاز والكناية والمثال والتشبيهات وغيرها من الاستعمالات اللغوية الضرورية في مقام الأفهام والتخاطب وخاصة لكتاب سماوي يريد قولبة المعاني الوجدانية في قوالب لفظية محدودة، فلهذا لا نجد ثمة مشكلة في فهم الآية التي تشير إلى أن الأرض مسطحة، أو أن لله يداً، أو سجود الظلال وأمثال ذلك، انما المعضلة في بعض الآيات التي تستعصي على التأويل والمجاز كما في السموات السبعة، أو رجم الشياطين بالشهب والنيازك، فلابدّ من التدبّر والامعان في هذه الحقائق القرآنية وطرق ابواب أخرى لحل المعضلة:

المعضلة الأولى: «السموات السبع»:

في البداية لابد من استعراض فكرة بطليموس عن العالم التي كانت سائدة في الاجواء العلمية أكثر من الفي عام، فحتى بعد النهضة العلمية في أوربا نجد كثير من الفلاسفة المسلمين في العصور المتأخرة متأثرين بتلك الرؤية الكونية كما في كتابات صدر المتألهين في أسفاره، والسبزواري في منظومته، وأحد مجلدات الاسفار، وهو السادس منها مختص ببيان العالم العلوي والافلاك السماوية وفقاً لنظرية القدماء، وخلاصتها أن الأرض تعتبر في هذه الرؤية الكونية محور العالم، وتحيط بها (9) افلاك حسب نظرية بطليموس، و(7) حسب نظرية الفلاسفة المسلمين بعد تصريح القرآن بالعدد (7) للسموات ولكن بعد إضافة الكرسي والعرش المحيطان بالسموات السبع لا يبقى كثير فرق بين الرؤية الإسلامية ونظرية بطليموس حيث يكون عدد الافلاك (9) في النهاية.

أما ترتيبها حسب هذه النظرية من حيث القرب والبعد عن الأرض وكما جاء في كتاب «المجسطي» لبطليموس أن الأرض ثابتة تقع في الوسط وتعتبر مركز الكرات الاخرى، ويحيط بها الهواء من كل جانب، وتحيط بالهواء كرة النار، وبعده يأتي أول فلك من الافلاك التسعة، وهو (فلك القمر)، وبعده فلك (عطارد). ثم فلك (الزهرة)، ثم فلك (الشمس)، ثم فلك (المريخ)، ثم (المشتري)، ثم (زحل)، إلى هنا يتحصل لدينا سبعة افلاك وهي السيارات السبع، واحد منها محيط بالآخر، ثم يأتي فلك البروج الذي هو عبارة عن السماء الثامنة حيث مق

النجوم والكواكب الثابتة والتي نراها معلقة في السماء ومثبتة (مثل المسامير المثبتة في خشبة)، وآخرها فلك الافلاك، أو فلك (اطلس) وهو الفضاء اللامتناهي الذي لا يعلم قطره إلّا الله تعالى ولا توجد فيه نجمة واحدة.

وهكذا تتحصل لدينا صورة للأرض والسموات مثلها كمثل البصل المكوّن من طبقات تحيط أحدهما بالأخرى تماماً.

والرؤية القديمة لعلماء الإسلام لا تكاد تختلف اختلافاً مهماً مع هذه الرؤية وخاصة بعد ورود روايات كثيرة تؤكد صحة هذه الرؤية، وليست هذه الرؤية للكون اعتباطية، فالأساس فيها هو الحسّ والرؤية البصرية، فالكواكب السبعة وهي التي تسمى بالسيارات السبع مشاهدة ومحسوسة، وما سواها من النجوم هي الثوابت وتشغل السماء الثامنة، أما التاسعة فهي فرضية بحتة، وبعد أن ثبت علمياً بطلان هذه الرؤية الكونية، فان السؤال المهم هو كيف نوفّق بين الرؤية الجديدة وإخبار القرآن الكريم بوجود سبع سموات حيث يظهر منها مساندتها وتأييدها للرؤية القديمة في نظرية الافلاك التسعة (أو السبعة مع حذف الكرسي والعرش)؟ علماً بأن الرؤية الجديدة وخاصة على فرضية لا محدودية العالم تلغي وجود سبع سموات، وتختزلها إلى واحدة لا أكثر.

المعاصرون من العلماء والمفكرين الإسلاميين تقدّموا بحلّين لهذه المعضلة:

«أحدهما»: ما أجاب به غير واحد من المفسّرين وعلماء الدين من أن العلم الحديث لم يثبت عدم وجود سماوات أخرى غير هذه

السماء الأولى. وعدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود. ولعل العلم الحديث سوف يتوصل فيما بعد إلى اكتشاف هذه العوالم التي أخبر القرآن بوجودها. ولذلك لا يمكن القول بأن الإخبار القرآني بوجود سبع سماوات يتقاطع مع رؤية العلم الحديث. يقول صاحب التفسير الامثل في هذا الصدد:

«الأصح في رأينا أن المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد، وتكرر هذه العبارة في آيات الذكر الحكيم يدلّ على أن العدد المذكور في هذه الآيات لا يعني الكثرة، بل يعني العدد الخاص بالذات.

ويستفاد من آيات أُخرى أن كل الكرات والسيارات المشهودة هي جزء من السماء الأولى، وثمة ستة عوالم أُخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم، وهذه العوالم السبعة هي التي عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع»[1].

ولكن هذه الجواب أو الحلّ غير مقبول لعدّة أمور:

1 - مع قبول فرضية لا محدودية الكون المادي يكون قبول وجود عوالم أخرى محيطة بهذا العالم محالاً، وحتى لو قلنا بالمحدودية فان تصديق وجود عوالم محيطة بهذا العالم الفسيح جداً - والذي يبلغ قطره المكتشف لحدّ الآن آلاف المليارات من السنين الضوئية عسير للغاية وخاصة إذا اخذنا بأخبار المعراج وأن النبي عرج إلى السماء السابعة.

(1) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل، ج 1، ص 152، ط2، الاية 29 من سورة البقرة.

2 - إن القرآن نفسه يكذب هذا الإدعاء. وذلك في تعبيره عن السموات بـ«طرائق»[1] جمع (طرق)، وهو ما يتطابق مع الكواكب السيارة في مسيرها ودورانها حول الشمس.

3 - إن هذا التصور لا يتلاءم مع تأكيد القرآن الكريم في العشرات من آياته بوجود سبع سموات ويذكرها في مجال التذكير بنعم الله تعالى على الإنسان كنعمة الشمس والقمر والماء والهواء وما إلى ذلك، فلو كانت السموات الاخرى غير مرئية ولا محسوسة لشدّة بعدها عن الأرض، اذن فما فائدة هذا التذكير الدائم بها والتأكيد على وجودها؟!

4 - إن القرآن حينما يتحدث عن السموات السبع يتحدث إلى المؤمنين والكافرين على أساس أن القضية من الوضوح إلى درجة لا تقبل الانكار، فهذا «نوح» يخاطب الكافرين في ذلك الزمن الغابر ويقول لهم:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[2].

ولو كان المقصود هو ما ذكره مكارم الشيرازي لجاز لاولئك الكفار انكار هذه المقولة وأنهم لا يرون ذلك، مع أن لحن الخطاب يوحي بقبولهم لها، وإلّا لما خاطبهم نوح بمثل هذا الخطاب.

«ثانيهما»: ما نجده في كتابات المفكرين الجدد امثال الدكتور سروش[3] وغيره الذين يذهبون إلى «بشرية الخطاب القرآني»،

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 17.
(2) سورة نوح، الآية: 15.
(3) مفكر إسلامي من إيران.

وتتلخص هذه الرؤية بأن الخطابات القرآنية رغم أنّها الهية، إلّا انها قد لبست ثياب البشرية وتجسدت المعاني السامية بلغة محدودة ومفاهيم بشرية ضيقة، فكان أن خضعت لتأثير البيئة والثقافة السائدة آنذاك، فكانت الخطابات القرآنية تخاطب الناس من خلال فهمهم للاحداث ورؤيتهم للكون والطبيعة، فلا اشكال في هذه الإخبارات رغم عدم واقعيتها لأنها تحكي عن ثقافة خاصة بعصر النزول كما هو مقتضى من أنزل عليه القرآن وهو النبي الأكرم ﷺ ومقتضى ثقافته وظروفه التاريخية.

وفيه: أن هذا الحل وان كان أفضل من صاحبه وأقرب إلى القبول، إلّا أنّه يواجه مشكلة تكريس الجهل في الثقافة البشرية وتقرير للخطأ وتصديق لرؤية كاذبة عن الواقع الخارجي، وسوف ينكشف هذا الخطأ في الرؤية في المستقبل حتماً كما حصل ذلك فعلاً، فكيف يسوّغ القرآن لنفسه بأن يبقي البشرية على جهلهم ويؤيد رؤيتهم الخاطئة وهو لم يأتِ إلّا لمحاربة الجهل والخرافة، ولتوعية الناس وتحريك عقولهم وتنوير أفئدتهم!!

«والصحيح» في حلّ هذه المعضلة أن نقول:

إن القرآن الكريم عندما أقر الرؤية القديمة (المشاهدة والمحسوسة في حركة السيارات السبع) لم يقرّها على علّاتها، بل سعى إلى تصحيحها بما يتفق مع الواقع المتحرك في الكون، وذلك يعني أن المراد من (سبع سموات) هي السيارات السبعة (الشمس بدل الأرض) لأنها مشاهدة ومحسوسة لجميع البشر، وفيها من الفوائد الجمّة ما لا يحصى، وخاصة في تعيين البروج والأشهر الشمسية وهداية السفن وما إلى ذلك، فالتصور الارضي كان يقدم

على أساس أن لكل سيارة سماء على حدة، أي أن هذه الكرات لا تسير في فراغ، بل في سماء منطبقة على السماء الدانية وهكذا حتى يصل إلى (فلك الافلاك)، والتصحيح القرآني لهذه الرؤية ينطلق من مفهوم السماء والفلك وانها ليست سوى مدارات وهمية و(طرائق) تتحرك فيها هذه السيارات ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

التصحيح أو التعديل الآخر الذي أجراه القرآن على الرؤية الكونية القديمة هو أنّه اختزل السماوات التسع (الافلاك التسعة) في نظرية بطليموس إلى سبع سماوات كما هو المشاهد من السيارات السبع، وما ورد في الأخبار وأفكار حكماء الإسلام من تصوير الكرسي والعرش بمثابة السماء الثامنة والتاسعة في احاطتهما بالكون فهو من بنات افكار هؤلاء الحكماء المتأثرين بالعلوم اليونانية إلى حدّ كبير، والروايات ضعيفة ومجعولة حتماً، لأنها تخالف كتاب الله، لأننا لا نجد هذا المعنى للكرسي والعرش في القرآن الكريم، غاية ما هناك أن القرآن يتحدث تارة عن الكرسي بانه:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2].

والسعة لا تعني الاحاطة كما هو واضح، والمفسرون يذهبون إلى أن المراد من «الكرسي» القدرة الإلهية، وهذا يعني أن القدرة الإلهية نافذة في جميع انحاء الكون ومتخللة في جميع مفاصل عالم الوجود، أي أن قدرة الله مقرونة مع الموجودات لا انها محيطة بالكون.

أما بالنسبة إلى «العرش» فالقرآن أنزله من وراء السماء السابعة إلى الأرض وجعله على الماء:

---

(1) سورة يس، الآية: 40.
(2) سورة البقرة، الآية: 255.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1].

والتعديل الثالث أن القدماء كانوا يتصورون أن النجوم الثوابت واقعة في السماء الثامنة (فلك البروج) بينما يقول القرآن في حديثه عن محل النجوم أنّها في السماء الدنيا:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[2].

وبما أن الرؤية البطليموسية كانت راسخة في افكار رجال الدين والحكماء المسلمين (ولحدّ الآن) فقد فهموا من هذه الآية أن القرآن يقرر محل النجوم في السماء الأولى. ولذلك رأينا أن حكماء ومحققين امثال الشهيد المطهري يرى أن جميع الكواكب والنجوم في الفضاء الفسيح تعود إلى السماء الأولى. والحال أن القرآن يصرح بأنها في السماء الدنيا، أي السماء الموجودة فعلاً في عالم الوجود، وهذا يوحي أيضاً إلى اختزال السماوات السبعة في سماء واحدة وهي «السماء الدنيا»، مما يقترب بالانسان كثيراً إلى الواقع الموضوعي لعالم الوجود والكون.

أما لماذا لم يصرح القرآن بالحقائق العلمية المكتشفة حديثاً عن الكون والتشكيلة الواقعية للاجرام السماوية؟ فذلك يعود إلى أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى، وليس العلوم الطبيعية مقصودة في الخطابات القرآنية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى صعوبة إفهام الناس في ذلك الوقت بالحقائق العلمية جملة واحدة، فلابد من التدرّج في الافهام والتأني في عملية الترشيد الفكري لئلّا يثقل

(1) سورة هود، الآية: 7.
(2) سورة الصافات، الآية: 6.

الأمر على الناس وخاصة أن الإسلام كان يعيش مرحلة مواجهة صعبة مع المشركين، وليس من الصحيح فتح ثغرة في سور الآيات القرانية ينفذ منها الخصم يتخذها ذريعة في تكذيب القرآن، ولكن هذا لا يعني تجويز الإخبار المخالف للواقع من قبل القرآن كما رأينا في المحاولة الثانية لتفسير السماوات السبع، ولا الأخبار عن وجود سبع سماوات لم يكتشف البشر لحد الآن سوى السماء الأولى منها كما في المحاولة الأولى، أما إمضاء التصور السائد مع تعديله بما يقترب من الواقع الكوني فهو المتعين في مثل تلك الظروف، وهذا هو ما نجده في مجمل الخطابات القرآنية.

المعضلة الثانية: علاقة الشياطين بالشهب

ولحلّ هذه المعضلة الفكرية لابدّ من تقديم بعض المقدمات بعد التسليم بعدم صحة الحمل على الظاهر كما تقدم.

المقدمة الأولى: في استبعاد الحمل على الظاهر، فمن جهة فان الشياطين موجودات مجردة (غير مادية) فكيف يؤثر فيها سلاح مادي كالنيازك والشهب وحملها على الفرار والعودة إلى الأرض؟ وأيضاً ما معنى أن تقوم الشياطين باستراق السمع لحديث الملأ الأعلى؟ وهل يعقل أن الملائكة في أقصى السماء السابعة ومحيطة بالعرش يصل صوتها في عملية المحادثة إلى جو الأرض (حيث أن الشهب محيطة بالأرض وليست في مدارات بعيدة جداً)؟ ولماذا تتحدث الملائكة بأسرار الكون فيما بينها؟ وما هي الاسرار الممنوعة على الشياطين؟ ولماذا سمح للملائكة ولم يسمح للشياطين؟ وما هي علاقة البعثة للنبي الخاتم مع منع الشياطين من استراق السمع وقد

كانوا يسترقون السمع فيما سبق من دون عائق؟ وكيف صدر هذا المنع في هذا الوقت بالذات مع العلم بأن ظاهرة الشهب والنيازك قديمة قدم العالم وظاهرة معاصرة لجميع المجتمعات البشرية، فكيف يقول القرآن بأنها مختصة بما بعد البعثة:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1] أي بعد نزول القرآن.

وعشرات الأسئلة من هذا القبيل التي تثير في جو الفكر زوبعة من الشك في مصداقية الحمل على الظاهر، وتدفعنا إلى طرق أبواب أخرى للفهم السليم والمعقول لهذه الآيات.

«المقدمة الثانية»: حول الخطاب القراني وفرقه عن الخطاب العلمي، فكما هو معلوم أن الخطاب العلمي خطاب وصفي بحت ولا مجال للمعيارية فيه، فعندما يقرر العلم قانون الجاذبية أو سرعة الضوء أو الخسوف والكسوف، والمد والجزر، فإنّما يقرر ظاهرة طبيعية على مستوى الوصف والإخبار فقط، أي من دون دعوة أخلاقية أو خطاب إنشائي.

في حين أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى لا كتاب علم، وهذا يعني أن الخطاب القرآني خطاب معياري وإنشائي وإن ظهر بلباس العلم والخبر العلمي.

وبعبارة أُخرى: إن الآيات القرآنية ذات بعدين في الخطاب: أحدهما وصفي وهو الظاهر، والآخر معياري ويتضمن توصية وإنشاء في محتواه الداخلي، وهذا هو الأصل والمراد من الخطاب القرآني،

(1) سورة الجن، الآية: 9.

وهو الموافق للغرض الأصل من القرآن بما هو كتاب هداية ودين، أو نقول كما في علم «السيمانطيقيا» وهو علم العلامات والدلالات حيث يقرر علماء السيمانطيقيا أنّ الخطاب يحوي على ألفاظ رمزية لا يقصد بها معانيها الموضوعة لها، بل قد يكون مراد المتكلّم شيئاً آخر غير معاني الألفاظ، مثل استخدام الجملة الإنشائية للتهديد، كقول الأب لابنه «العب كثيراً» ويقصد من ذلك تهديده وحثه على ترك اللعب، فنجد أنّ المعنى الأولي للجملة أعلاه غير مقصود، ويبحث علماء الأصول هذا الموضوع في الدلالة التصورية والتصديقية وأنّ المتكلّم قد لا يريد الدلالة التصورية من الالفاظ، ولذلك قالوا بالدلالة التصديقية، فيكون المعنى الأولي للجملة غير ملحوظ، أي تكون الجملة بلا معنى في مدلولها التصوري، ولذلك يجري التأكيد على اكتشاف مراد المتكلّم والدلالة التصديقية الجديّة للخطاب في علم «السيمانطيقيا».

بعد هذا نقول: إن الجانب الوصفي في الآيات القرآنية لا يعني بالضرورة الحكاية عن الواقع الخارجي، لأنه ليس هو المقصود بالاصل، فلذلك يمكن أن يأتي هذا الجانب من الآيات محايثاً للثقافة السائدة في ذلك الزمان، فاذا كان السائد في تصور الناس أنّ الظل يسجد، أو أن الشهب والنيازك عبارة عن كواكب نارية تنطلق لقمع الشياطين وصدّهم عن الصعود إلى السماء، فما المانع من الاستفادة من هذا المفهوم في عملية التربية والإرشاد الديني للناس؟ ومع فرض عسر تغيير وجه النظرة المذكورة للناس لانعدام الوسائل والأدوات العلمية، أو لاحتمال إثارة بلبلة في افكار الناس الذين أخذوا هذه التصورات الخاطئة من الاسلاف مأخذ الحقيقة

المسلّمة بما لا يخدم أهداف الدين في التربية الروحية والتوصية المعنوية، فما المانع أن يقرّ الدين هذا التصور ويستفيد منه في مجال تعميق الإيمان بالله تعالى والصعود بالإنسان من الواقع الجاهلي إلى مراتب عالية من الكمال المعنوي والإنساني بعد أن لا يكون مراده الجدي من الخطاب هو المدلول التصوري أو الوصفي؟

وعلى سبيل المثال كان الأب في عوائلنا الملتزمة دينياً يقول لأطفاله في معرض تفسير ظاهرة رفع الطيور والدجاج رؤوسها بعد تناول الماء بأن هذه الحيوانات إنّما تشكر الله بعد شرب الماء، ولذلك ترفع رأسها إلى السماء، ومن الواضح أن هذا الفرض لا يقوم على أساس معقول، وبعد أن يكبر الطفل وتتوسع إدراكاته يدرك زيف هذا الادعاء. ولكن هل يعني هذا أن الأب كان يكذب؟ كلّا، لأن الغرض الأساس من تفسيره لهذه الظاهرة ليس هو الوصف والإخبار، بل عبارة عن توصية مبطنة وإرشاد للطفل بأن يشكر الله بعد كل شربة ماء كما تفعل هذه الحيوانات. فالمصب الحقيقي لهذا النوع من الخطاب هو التوصية لا الوصف، ولو كان مجرد وصف وحكاية عن حقيقة في عالم الواقع الخارجي لأمكن أن يكون خبراً كاذباً.

وهكذا في قول إبراهيم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾[1] فهو لا يريد أن يقرر خبراً عمّا وقع في الخارج ليكون الخبر كاذباً. بل قصد التوصية والإنشاء الموجود في باطن هذا الخبر، وهو الايحاء لهؤلاء الجهلاء بأن هذه الأوثان لا تضر ولا تنفع وأنّه لا جدوى من عبادتها.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 63.

إذن، فالجانب الوصفي الظاهر في الخطاب القرآني ليس هو المقصود.

فعندما يقرر القرآن حقيقة أن الله واحد، أو عندما نجد في الروايات أن «كلمة لا إله إلّا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي» هل أن المقصود هو أن يعتقد الإنسان بهذا الخبر فقط؟ أي هل أن المقصود منه الجانب الوصفي، أو الجانب الإنشائي والمعياري بأن يتحرك الإنسان في سلوكه العملي والأخلاقي والعبادي بما يتوافق مع هذه الحقيقة التي تتضمنها كلمة التوحيد؟

لا شك في أنّ المراد هو الثاني، وإلّا لما كان هناك معنى معقول لأن تكون هذه الجملة «لا إله إلّا الله» حصناً من العذاب، لأن المشركين أيضاً كانوا يقرّون بهذه الحقيقة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

بعد هذا نعود إلى ما نحن فيه، فالجانب الوصفي من الآية محل البحث قد لا يتوافق مع معطيات العلم الحديث، ولكن هذا لا يعني الخطأ في تشخيص الظاهرة، أو الكذب في الإخبار، لأن الإخبار ليس مقصوداً من الاساس، بل يشكل قشرة لفظية لحكاية توصية معيارية هي المقصودة بالاصل، وإذا أردنا أن ندرك معالم التوصية في سياق هذه الآيات فعلينا أن نتحول من العالم الخارجي إلى عالم الباطن والنفس الإنسانية، ونفترض أن الآيات تتحدث عن عالم النفس في عملية تشبيه واستعارة من ظواهر العالم الخارجي لتقريب المعنى إلى الافهام، وبالاستفادة من بعض المفاهيم

(1) سورة لقمان، الآية: 25.

والتصورات، منها: أن الشياطين يوسوسون في صدور الناس كما صرح القرآن بذلك: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [1].

فمحلهم ومكانهم هو في عالم النفس وفي صدور البشر.

ومنها: تزامن منعهم من الصعود إلى السماء مع بعثة النبي الأكرم ﷺ الذي غرس الإيمان في قلوب الناس، فمن أجل المحافظة على هذا النور الإلهي في قلب الإنسان منعت الشياطين من الاقتراب منه.

ومنها: أن العرش الإلهي الوارد في الروايات الشريفة هو «قلب المؤمن»:

«قلب المؤمن عرش الرحمن».

والعرش محل تلاقي الملائكة ومنبع الأوامر الإلهية والعلوم الغيبية المتعلقة بهذا الإنسان، فلو استمعت الشياطين إلى ما سيجري في المستقبل على هذا الإنسان، فانها ستكون قادرة أكثر مما مضى على مستوى احباط عناصر الخير وترشيد عوامل الشر في الفرد المؤمن.

ومنها: أن الرسالة المحمدية عملت على تقوية عقول الناس وإذكاء الفهم الواقعي والتفكير المنطقي للإنسان المسلم، وهذا يعني أن كل وسوسة لهؤلاء الشياطين القابعين في صدر الإنسان ونفسه الامارة ستواجه بالشهب العقلية على شكل إستدلال عقلي

(1) سورة الناس، الآيتان 4 - 5.

يعمل على تحريك الإنسان في طريق الخير ودفعه إلى سلوك جادة الصواب وتجنب الشكوك والأوهام التي تثيرها الشياطين في نفسه.

النتيجة: إن تصوير علاقة الشياطين بالشهب والنيازك يمكن أن يحمل على هذا المعنى من تشبيه المعاني العقلية بالمحسوسات والغرض منه الإيحاء للناس بأن الشياطين لا يمكنها التدخل في الوحي بعد الآن والتشويش على حامل الرسالة الإلهية للبشر كما كان الأعداء وخاصة اليهود يثيرون هذه التشكيكات في جو الرسالة، ولا يخفى ما في هذا الايحاء من تثبيت لقلوب المسلمين على الإيمان من موقع الوضوح في الرؤية والتعامل مع الرسالة السماوية من موقع الوثوق والاطمئنان.

5 - التحدّي بمن أُنزل عليه القرآن!

يقول العلّامة:

«وقد تحدّى بالنبي الأمي الذي جاء بالقرآن المعجز في لفظه ومعناه، ولم يتعلم عند معلم ولم يتربّ عند مربّ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] فقد كان ﷺ بينهم وهو أحدهم لا يتسامى في فضل ولا ينطق بعلم حتى لم يأت بشيء من شعر أو نثر نحواً من أربعين سنة وهو ثلثا عمره لا يحوز تقدماً، ولا يرد عظيمة من عظائم المعالي، ثم أتى بما أتى به دفعة فأتى بما عجزت عنه فحولهم وكلّت دونه السنة بلغائهم»[2].

(1) سورة يونس، الآية: 16.

(2) الطباطبائي - الميزان - ج 1 - ص 63.

ونلاحظ عليه:

1 - إن العقل لا يمنع من حدوث هذ الأمر لأحد من الناس. ولو كان منعاً فهو من المنع العرفي لا العقلي، وحتى العرف البشري يشهد في تاريخ النوابغ والشعراء العديد ممن نبغ فجأة بعد ما كان خاملاً شطراً من عمره.

2 - إن العقل والتاريخ لا يمنعا من أن يكون النبي قد تعلّم هذا القرآن من آخرين، غاية الأمر لم تصل إلينا اسماؤهم، فالمنكر يدعي أن النبي تعلم خفية هذه العلوم والمعارف ثم أعلن عنها في الوقت المناسب، ولذا خفي علينا اسم من تعلم عنده.

1 - إن الآية المذكورة ليست في صدد التحدي كما يدعي العلامة، ولو أخذنا سياق الآية قبلها بنظر الإعتبار لأتضح الأمر جلياً إذ تقول:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[1].

فترى أن الآية محل البحث جاءت بصدد الإجابة على اقتراح المشركين بأن يأتيهم بكتاب غير هذا، فتقرر الآية بأن هذا الإقتراح

(1) سورة يونس، الآيات: 15 - 17.

غير عملي، لأن تبديل الآيات وتغييرها ليس من صلاحيات النبي، لانه ﷺ تابع فيما يؤمر به ويوحى إليه، وحتى الآيات التي تلاها النبي عليهم انما هي بمشيئة الله، ولو شاء الله لمنع النبي من تلاوتها عليهم كما كان قد لبث فيهم عمراً من قبله لا يتلو عليهم ذلك، فكل ذلك يؤكد حقيقة أن تلاوة النبي للآيات عليهم إنما هي بأمر الله تعالى، لا أن هذه الآيات معجزة، ولا أن نفس هذا العمل وهو تلاوة الآيات معجز بحد ذاته ولا يمكن صدوره عن غير النبي، فالمراد تقرير هذه الحقيقة، وهي أن تبديل الآيات أو تغييرها يتوقف على مشيئه الله لا أكثر، ولهذا قال بعد الآية محل البحث:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[1] أي أن نفس هذا العمل ممكن، إلّا أنّه من أقبح الظلم، وهو أن يفتري الإنسان على الله كذباً من هذا القبيل لا أنّه أمر مستحيل.

4 - إن هذا المعنى لا يمثل معجزة للقرآن الكريم، بل هو معجزة للنبي الاكرم ﷺ، أو لكليهما، وهذا يعني أن القرآن لوحده لا يمثل إعجازاً فوق مستوى البشر، والحال أن التحدي القرآني بالاتيان بسورة واحدة أو بعشر سور من مثله يؤكد إستقلالية الظاهرة القرآنية في الاعجاز، أي لا ينظر هذا التحدي القرآني إلى صاحب الرسالة ومن أُنزل عليه القرآن وخصوصياته وصفاته..

6 - القرآن والتحدي بمجموع الآيات!

وقد يدعى أن القرآن معجزة بمجموع ما ورد من جهات

(1) سورة يونس، الآية: 17.

اعجازية لا على شكل منفرد، يقول العلامة: «فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، والعالم في علمه، وللإجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والإختلاف في الحكم والعلم والبيان، ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم اعجازه من جميع الجهات، فهل يتأتى للقوة البشرية أن تختلق معارف إلهية مبرهنة تقابل ما أتى به القرآن ومتماثلة في الحقيقة؟ وهل يمكنها أن تأتي بأخلاق مبنية على أساس الحقائق تعادل ما أتى به القرآن في الصفاء والفضيلة؟ وهل يمكنها أن تشرع أحكاماً فقهية تحصي جميع أعمال البشر من غير اختلاف يؤدي إلى التناقض مع حفظ روح التوحيد؟ وهل يمكن أن يصدر هذا الإحصاء العجيب والتقارن الغريب من رجل أمي لم يتربّ إلّا في حجر قوم يرتزقون بالغارات والغزوات ونهب الأموال وأن يئدوا البنات ويتباهوا بالفجور ويذموا العلم ويتظاهروا بالجهل؟..»[1].

ونلاحظ عليه:

1 - إذا كانت اجزاء المركّب وكل واحد من أفراده غير معجز، فكيف يكون المجموع معجزة، والكل عبارة عن مجموع هذه الأفراد؟ وببيان آخر: إن المجموع تارة يكون من قبيل المجموع أو المركب الكيمياوي كالماء المركب من الهيدروجين والاوكسجين، فحينئذ يمكن أن يكون للمجموع ماهية جديدة ذات خصائص معينة

(1) نفس المصدر - ص 60 - باختصار.

تختلف عن الأجزاء، لكن فيما نحن فيه المجموع عبارة عن مركب فيزياوي لا تستهلك فيه الأفراد في الكل، فمجموع عدد من الاحجار والصخور تشكل جبلاً ولا تشكل غابة، ومجموع عدد من الأشجار تشكل غابة - أي من نفس النوع - ولا تشكل قطيعاً، وهكذا . . فكذلك الإعجاز القرآني المدعى لا يمكن أن يتشكل من جهات وأفراد غير إعجازية.

نعم، قد يقصد من هذا الوجه استخدام «حساب الاحتمالات» للوصول إلى النتيجة القطعية بأن هذا القرآن ليس من محمد ﷺ، كما هو الحال في عملية الاستقراء، ولكن أين هذا من دعوى الاعجاز؟ لأن المطلوب هو إثبات أن البشر عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن، لا مجرد أن هذا القرآن ليس من محمد ﷺ وبعبارة أخرى: إن حساب الاحتمالات يأتي في غير المعجزة أيضاً فيما لو اريد اثبات حقيقة معينة من الحقائق، وهذا لا يعني نفي ما عداها من الفرضيات، فحساب الاحتمالات يثبت أن هذا القرآن ليس من محمد ﷺ، ولكن كون البشر لا يستطيعون الإتيان بمثله فمسألة أخرى لا علاقة لها بحساب الاحتمالات المذكور.

2 - القرآن نفسه يكذب هذا الإدعاء، لأنه يتحدى البشر بأن يأتوا بسورة من مثله وكذلك عشر سور: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، ومعلوم أن سورة واحدة من قبيل سورة «الناس» لا تحوي أصنافاً من الإعجاز القرآني المدعى، ومع ذلك تحدى القرآن الجميع بأن يأتوا بسورة واحدة مثل سوره.

(1) سورة البقرة، الآية: 23.

3 - سلمنا، ولكن يأتي الإشكال العقلي المذكور، وهو أن هذا النوع من الإعجاز لا يدل على أكثر من كون القرآن ليس من محمد ﷺ ولا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولكن هذا لا يعني أنّه من الله حتماً، فقد يكون من الملائكة أو من مخلوقات أخرى مجردة لا يراها الإنسان. والمطلوب اثبات أن هذا القرآن من الله، والعقل عاجز عن اثبات هذا المعنى قطعاً.

4 - نلاحظ أن العلّامة يستعمل في هذا المورد الأسلوب الخطابي بدل الدليل العلمي، لاثبات فرضية طوباوية ليس لها رصيد في الواقع الخارجي، فمتى استفاد السياسيون من سياسة القرآن؟ ومتى اغترف علماء الإجتماع من القرآن؟ ومتى انتفع الحكام في حكومتهم من القرآن؟ ومتى كان للقرآن سياسات على المستوى المتداول بين المجتمعات البشرية؟ وكيف يدعي أن علماء الإجتماع على اختلاف نظرياتهم وأفكارهم قد اقتبسوا علومهم من القرآن؟ إلى آخر هذه الدعاوي والمزاعم التي لا تقوم على مشاهدات علمية ولا ممارسات خارجية على أرض الواقع العملي.

الفصل الثالث

حقيقة المعجزة القرآنية

- الاعجاز القرآني وآيات التحدّي
- المعجزة الوجدانية ونظرية الانتحدي

الإعجاز القرآني وآيات التحدي

قبل الدخول في تفاصيل النظرية المتبنّاة، نرى من اللازم الاشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّه لولا آيات التحدي الواردة في القرآن، لأمكن للمسلم أن يعتقد بالقرآن الكريم لا على أساس أنّه معجزة، بل هو كلام الله وكتابه الذي جاء به رسول الله ﷺ لهداية البشر بدون استلزام أي محذور عقلي أو شرعي، فما نرى من اصرار علماء الإسلام على أن القرآن معجزة إلهية هو بدافع آيات التحدي هذه، أي أن الدليل على كون القرآن معجزة في الأساس هو دليل نقلي قبل أن يكون دليلاً عقلياً، ولكن هذه الآيات الكريمة لا تشير في دائرة التحدي إلى نوع الإعجاز القرآني والمحور الأساس لعملية التحدي.

ولذلك كان من المفيد أن نستعرض هذه الآيات الكريمة كمحاولة لاستجلاء الابعاد الحقيقية للاعجاز القرآني واستكناه سرّ هذا التحدي القرآني.

أما الآيات فهي:

1 - ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.

2 - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(1).

3 - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(2).

4 - ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾(3).

5 - ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(4).

فنلاحظ أن التحدي هنا يتمثل في أن يأتي العرب، بل الناس جميعاً، بل والجن معهم، بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور مثله، أو حتى بسورة واحدة مثله، فلو استطاعوا من الإتيان بذلك، فهذا يعني أن هذا الكتاب من محمد ﷺ، أو على أقل التقادير ليس من الله، وبالإمكان صياغة هذا الدليل بالشكل المنطقي، فيقال: «لو كان هذا الكتاب من عند غير الله، لأمكن الإتيان بمثله، لكن

(1) سورة هود، الآية: 13.
(2) سورة يونس، الآية: 38.
(3) سورة البقرة، الآيتان: 23 - 24.
(4) سورة الطور، الآيتان: 33 - 34.

التالي باطل، فالمقدم مثله»، فلو كان من «محمد»، لأمن لغيره من البشر الإتيان بمثله لاشتراكهم في الاوصاف والخصوصيات، فان لم يستطيعوا ذلك، فهذا يعني وجود خصوصية في هذا القرآن لا يستطيع البشر بما فيهم «محمد» الإتيان بمثله.

وقد تبيّن فيما سبق أن الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة تتحدى الانس والجن سوية على أن يأتوا بمثله، وقلنا أن هذا المعنى بنفسه يدل على نفي الإعجاز البلاغي المدعى، أو على الأقل أن التحدي في هذه الآية لا يقصد به التحدي البلاغي، وإلّا فلا معنى لتحدي جميع البشر من غير العرب، ولا تحدي الجن بأجمعهم ولا يعلم كونهم يتكلمون العربية، وعلى فرض كون لغتهم عربية، فما أدرانا أنهم لم يستجيبوا لهذا التحدي وقد جاؤوا بمثل هذا القرآن، إلّا أنّه لم يصل الينا خبر ذلك لانقطاعهم عنّا؟

فالآية الأولى تدل بالملازمة على أن التحدي لم يكن من جهة البلاغة، والآيات الاخرى تدل على عدم كون التحدي بالمغيبات أو بالكشوفات العلمية حيث تتحدى بعشر سور أو بسورة واحدة، ومن الواضح أن كل سورة من القرآن لا يتوفر فيها مثل هذه الجوانب الاعجازية - كما أسلفنا - فلابد من التدبّر والتأمل في هذه الآيات الكريمة أكثر لمعرفة سرّ التحدي ومركز الثقل في هذه الآيات، وكيف أن القرآن يكرر هذا التحدي لجميع الناس كافة دون أن يخشى الاستجابة فضلاً عن الإتيان بالمثل؟

الملاحظة الأولى: الملفتة للنظر في هذه الآيات الوثوق التام في عجز البشر عن الإتيان بمثله على طول التاريخ وإلى يوم القيامة

(ولن تفعلوا) مما يوحي إلى التباين الذاتي بين الخطاب البشري والخطاب القرآني. وبالتالي العجز الذاتي عن الإتيان بالمثل.

والملاحظة الثانية: تحدي الجن في هذه الآيات، وقد تقدم آنفاً ما فيه من الإشكال.

وهذا يشير إلى حقيقة أن كل مخلوق لا يمكنه أن يأتي بمثله لكونه مخلوقاً، وكلامه كلام مخلوق ومباين بالذات مع كلام الخالق، أي أن الإشكال المتقدم يرتفع إذا علمنا بأن العجز إنما يعود إلى كونهم مخلوقين، فيتساوى حينئذ الانس والجن في هذه المسألة.

الملاحظة الثالثة: أنّ تحدي جميع البشر بلغاتهم المختلفة يدلّ على أنّ القرآن حتى لو ترجمة إلى لغات أُخرى غير العربية لكان صالحاً للتحدّي، وإلّا فلا معنى لأن يتحداهم بكلام غير كلامهم ولغتهم.

والملاحظة الرابعة: أنّ الآية الثانية تذكر كلمة «مفتريات»، أي مفتريات على الله، لأن صدر الآية يقرر قول المشركين بأن هذا القرآن قد افتراه هذا النبي على الله تعالى، فلو كان حقّاً ما يقولون فليأتوا بعشر سور مثله ثم يفترونها على الله كيما يتضح المفترى الواقعي منهما.

بعد هذا التوضيح الاجمالي لآيات التحدي وما يتعلق بها من إشارات وملاحظات نصل إلى بيان الوجه الاعجازي المقترح.

المعجزة الوجدانية ونظرية الإنتساب

بعد أن رأينا أنّ الإدعاءات المبتنية على الإعجاز البلاغي والعلمي والغيبي وغير ذلك للقرآن الكريم لا تقوم على قراءة علمية

دقيقة لظاهرة الإعجاز القرآني، نتطرق إلى استعراض ما نراه معجزة القرآن الحقيقية والتي تحدى بها الله تعالى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، وهذا يعني أن البشر على اختلاف لغاتهم لا يستطيعون الإتيان بمثل هذا القرآن ولا سورة من مثله حتى لو ترجم إلى لغات أخرى.

النظرية باختصار

وتقرير هذه النظرية أن المعجزة: إما أن تكون «منصوبة» من الله تعالى، أو «منسوبة» إليه، فما كانت «منصوبة» من الله تعالى فهي الخارقة لناموس الطبيعة، وجميع افراد البشر لا يستطعيون الإتيان بمثلها من هذه الجهة، أي جهة كونها لا تتوافق مع القوانين الطبيعية، ولكن «المنسوبة» إلى الله تعالى لا يفترض كونها خارقة لقانون طبيعي، وعجز البشر عن الإتيان بمثلها انما هو لكونها منسوبة إلى الله تعالى. وللإختصار نطلق على النوع الأول «المعجزة من» أي المنصوبة من الله، وعلى الثاني «المعجزة إلى» أي المنسوبة إلى الله، ومعجزات سائر الأنبياء من قبيل النوع الأول، فلا شك أن «ناقة صالح» معجزة قد نصبها الله تعالى دليلاً على نبوة صالح عليه السلام، بمعنى أن الله قد خلق هذه المعجزة وجعلها بنفسها معجزة، وهكذا «عصى موسى» بنفسها معجزة، أما القرآن الكريم فهو معجزة من النوع الثاني، أي أنّه في حدّ ذاته وبقطع النظر عن انتساب هذا الكلام لله تعالى ليس بمعجزة. ولكنه من حيث نسبته إلى الله تعالى فهو معجزة، أي انّه لا أحد من البشر بإمكانه أن يأتي بكتاب مثله ويدّعي نسبته إلى الله تعالى وأنّه كلام الله وتكون هذه النسبة صحيحة ومقبولة، فما من أحد يقرأ صفحة أو صفحتين منه إلّا ويعلم قطعاً بأن

هذا الكلام كلام البشر وليس كلام الله، ولكن كل شخص يقرأ القرآن حتى القرآن المترجم إلى لغة أخرى يدرك جيداً أن الله هو الذي يتحدث معه بـ«**نغمة الالوهية**»، وأن البشر لا يمكنه الإتيان بمثله من هذه الجهة، أي من جهة النسبة إلى الله تعالى.

النظرية بالتفصيل

لنفترض أنّك كنت في بلاد الغربة والمهجر، وبينما كنت جالساً مع أصدقائك وإذا بساعي البريد يتقدم إليك برسالة قد كتب عليها أنّها من زوجتك، التي تركتها منذ سنوات في أرض الوطن، وتفتح الرسالة المكتوبة في عشر صفحات وأول ما يلفت نظرك منها أن الخط خط زوجتك، فتشعر في قرارة نفسك بالوجد والانبساط بعد أعوام من الوحدة وانقطاع اخبار الأهل والأحبة، وإذا بالشوق يحدوك لقراءة هذه الرسالة واستطلاع أخبارها، ولكنك تشعر بأن الجو غير ملائم وأنك بحاجة إلى فرصة لقراءتها في وقت آخر حينما تكون لوحدك بعيداً عن انظار الاصدقاء، فما يكون منك إلّا أن تطوي الرسالة وتضعها في جيبك ثم تواصل الحديث مع رفاقك في ذلك المجلس، إلّا أن قلبك منقطع عنهم ومشغول بأمر هذه الرسالة.

وقد يخطر في ذهنك أسئلة وأوهام عن كيفية وصول الرسالة إليك وكيف عرفت زوجتك بعنوانك الحالي في بلاد المهجر وأنت لم تبعث لها برسالة ولم تكتب إليها عنوانك، ثم ومن خلال معرفتك بزوجتك التي عاشرتها لعدة سنوات تعلم أنّها لم يسبق لها أن كتبت رسالة أو انشاءً ادبياً، وهكذا يتسرب إلى نفسك بعض الشك في أن لا تكون زوجتك هي صاحبة الرسالة، بل أحد

الأقرباء في أرض الوطن، أو أحد أصدقائك الذين معك في المهجر ويقصد بذلك المزاح أو لأي غرض آخر غير معلوم.

ولكن الخط خطها كما عرفته منذ سنوات، فتهدأ نفسك قليلاً، إلّا أن الوسواس يعود إليك مرة أخرى، فلعل الكاتب استطاع تقليد الخط بعد تمرين وممارسة... فلا تجد بداً من استئذان الرفاق وترك الجلسة لتخلو بعض الوقت مع الرسالة وتقرأها من موقع الشك ليستبين لك الحال وتقضي على تلك الوساوس والأوهام...

إذا كان الخط لا يمثل دليلاً معتبراً على أن الرسالة من زوجتك، فليس بمحال أن يتحرك أحد الاشخاص لتقليد خط زوجتك لإيهامك بأن الرسالة مرسلة منها..

وإذا كانت بعض الأخبار الواردة في الرسالة عن حالة الأولاد والأقرباء في أرض الوطن لا تقوم دليلاً حاسماً على أن المرسل زوجتك لاحتمال أن يكون الكاتب المجهول ملمّاً ببعض تلك الأخبار ولديه اطلاع اجمالي على بعض ماضيك وشؤونك العامة وروابطك الاجتماعية...

فماذا يبقى في البين لحسم الأمر وإثبات أن المرسل لهذه الرسالة هي زوجتك، أو ذلك الشخص المجهول؟

هنا يتحتم عليك قراءة الرسالة والعثور على الجواب. وهكذا تقرأ صفحة أو صفحتين ليتجلى لك يقينا أن زوجتك هي صاحبة هذه الرسالة، وذلك حينما تنظر إلى المسألة من حيث الاستغراق في الجانب الخفي منها، أي تقرأ ما وراء السطور والحروف لتعثر على «نغمة الزوجية» التي تربطك مع زوجتك، فهذِهِ «النغمة»

الخاصة لا تتوفر لدى شخص آخر غير زوجتك ولا يمكن لأي شخص آخر تقليد هذه النغمة في الخطاب الزوجي، وخاصة إذا كانت الرسالة تحمل في طياتها أجواء عاطفية واثارات وديّة، وبذلك يتأكد عدم انتسابها إلى شخص آخر لا من حيث انعدام الغرض المعقول والمقبول لكتابة هذه الرسالة من قبل شخص آخر. فحسب، بل إن أي شخص غير زوجتك لا يمكنه أن يتحدث معك بمثل هذا الحديث الذي تفوح منه «نغمة الزوجية».

نأتي إلى ما نحن فيه، فبعد أن قلنا بامكان الإتيان بكتاب يضاهي القرآن في البلاغة والفصاحة، بل ندعي وقوع ذلك كما تقدم في بعض خطب أمير المؤمنين، أو بعض أدعية المعصومين عليهم السلام، وبعد أن رأينا عقم دعوى الإعجاز العلمي أو الأخبار بالمغيبات، فما علينا إلّا قراءة صفحة أو صفحات من الكتاب الكريم. والتطلع نحو المتكلم من خلال سياق الخطاب القرآني للناس لنعثر بكل سهولة ويسر وبدون أية تعقيدات بلاغية أو تأويلات باطنية على شخصية المتكلم الحقيقية، وذلك من خلال «نغمة الالوهية» التي تتجلى بصماتها على كل فقرة من فقرات هذا الكتاب وكل آية من آياته، فهذا النموذج من الخطاب الذي ينفرد به القرآن الكريم هو الذي يتولى إزاحة الأوهام والوساوس عن شخصية المتكلم ويعرض على الإنسان الاذعان والانبهار لواقع القداسة المطلقة في مواجهة الذات المقدسة حيث يخاطبه بالطريقة التي تثير في اعماقه حالة معنوية عالية ظنها القوم أنّها ناتجة عن بلاغة القرآن وفصاحته الاعجازية، بينما هي نتيجة سقوط «الانا»

والعناوين الزائفة أمام الحقيقة الشاخصة، واهتزاز صحراء القلب للغيث المعنوي المتولّد من مواجهة العدم المطلق للوجود المطلق.

عندما يفتح الإنسان القرآن الكريم «حتى المترجم إلى لغات أخرى» ويقرأ صفحة واحدة لا على التعيين فسوف يشعر في أعماق وجدانه بأن المتكلم معه في هذا الكتاب هو خالقه وبارئه لا غير، فلا يحس بأدنى شائبة بشرية في أخاديد الخطاب القرآني، وكأن دور النبي الكريم الذي جاءه بهذا الكتاب دور المرآة الصافية التي تعكس للناظر كل ما يقف امامها بدون تصرف، وهذا هو مرادنا من كلمة «نغمة الالوهية».

إلى هنا لا زلنا في موقع الادعاء وبيان أصل النظرية، اما الاثباتات العلمية والتطبيقية لهذا الادعاء، وأن الإعجاز القرآني هو من نوع «المعجزة المنسوبة» لا المنصوبة، فيتبين من خلال استعراض بعض الآيات الكريمة التي تقرر في بنية الخطاب القرآني أن المتكلم هو الله تعالى:

الطائفة الأولى: – المتكلم والفوقية الاستعلائية مع حامل الرسالة:

لاحظ هذه الآيات:

1 – ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

2 – ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾[1].

3 - ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة مفعمة بهذا اللون من الخطاب الإلهي، بحيث يدرك الإنسان بوجدانه أن هذا الكلام يستحيل أن يكون من محمد ﷺ، فهناك متكلّم يخاطب محمداً ﷺ ويأمره وينهاه وقد يلومه، فمن هذا المتكلم الذي يتكلّم مع محمد ﷺ بهذه الصورة الإستعلائية؟

وإذا كان هذا القرآن من محمد ﷺ، فهل يحسن به أن يجعل نفسه في موضع الملامة والتهديد كما في الآية الأولى، حيث نجد خطاباً عجيباً للنبي فيه تهديد ضمني بأنه لو لم يؤدِّ الرسالة الخاصة فسيُحبط عمله وكأنّه لم يصنع شيئاً خلال السنين المتمادية من النبوة سواء في مكة أو المدينة، وفيها وعد كذلك بالحفظ من المكائد التي يمكن أن يقوم بها بعض المنافقين تجاه النبي ودعوته، فيا ترى لو كان هذا الكلام من النبي، فهل يعقل أن يتحدث الرسول مع نفسه بمثل هذا، ويهدّد نفسه تارة ويعدها بالحفظ أخرى، ويقول لنفسه بأنه بقي شيء من الرسالة لم تبلّغه، ويصرّح بهذا المعنى للناس، وكان بإمكانه أن يؤدّ الرسالة الخاصة من دون كل هذا اللّف والدوران والتهديد والوعيد؟!

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 1 - 2.
(2) سورة الحاقة، الآيات: 44 - 47.

في «الآية الثانية» نجد أمراً ونهياً شديداً للنبي، حيث يأمره أولاً بتقوى الله، وينهاه ثانياً عن اطاعة الكافرين والمنافقين، ويأمره مرة ثالثة بأن يتبع ما يوحى إليه من ربّه، وفي كل الحالات نجد آمراً يتحدث بلغة الحاكم والمولى مع أحد رعاياه وعبيده، والطريف أنّه مع ذلك يخاطبه بصفة «النبي» الذي هو أسمى مقام دنيوي يناله الإنسان في الحياة، فمع وجود هذا العنوان والصفة لصاحب هذا الكتاب السماوي نجد أن المتكلم في هذا الكتاب يخاطبه بلغة الآمر والمولى لعبده!! فهل سبق أو لحق من الفلاسفة أو الشعراء أو المؤلفين أن يكتبوا كتاباً أو ينشدوا قصيدة تحمل في طيّاتها مثل هذا الخطاب لصاحب الكتاب ومؤلفة أو لمنشد القصيدة وقائلها؟!

الآية الثالثة: تتجلى فيها الفوقية الاستعلائية للمتكلم بوضوح صارخ من خلال تهديد مخيف لحامل الرسالة وأن عليه أداء الرسالة إلى الناس بدون زيادة أو نقصان، وإلّا فان المرسل سينزل في حقّه أشد انواع العقاب وسوف لن يجد له ناصراً ومعيناً «فما منكم من أحد عنه حاجزين»، فسياق هذه الآية يشهد بجلاء أن للمتكلم سلطة علياً على الرسول، وأن هذا الرسول لا يتجرأ أن يضيف شيئاً من عنده على الرسالة الموحاة له.

الطائفة الثانية: المتكلم والفوقية الرحمانية مع الإنسان:

أما الخطاب القرآني للإنسان بعامة فأقرأ معي هذه النصوص البديعة:

1 - ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

2 - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

فالمتكلّم في الآيات الأولى يفترض نفسه أنّه خالق الإنسان، ثم يقول له مستدلاً: إنك لو لم تصدّقني فانظر إلى أصلك وهو المني، فهل أنت الذي خلقته أم أنا؟ ومع الدقة في هذا التعبير يتجلى لنا أروع استدلال وجداني (لا عقلي) يثير وجدان الإنسان ويحرّك فطرته نحو خالقه حيث يحصر الخالق في اثنين: الإنسان أو الله، ومع وضوح بطلان الأول لابدّ أن يكون الثاني صحيحاً، ولكن الخطاب لا يقول للإنسان: «أنت الخالق أم الله بل يقول: «أنت الخالق أم أنا، فلا يسع الإنسان إلّا أن يجيب: بل أنت يا إلهي.

(1) سورة الواقعة، الآيات: 57 - 69.
(2) سورة الروم، الآيات: 20 - 23.

هذه هي «نغمة الالوهية»، وهذا هو مقصودنا من أن الإنسان يشهد بوجدانه بأن الله هو صاحب هذا الكلام العجيب لا النبي.

وهكذا تتوالى الأسئلة الوجدانية في هذه السورة وتتوالى الأجوبة من الإنسان بالاعتراف بالفضل لهذا المتكلّم معه والاقرار بالعجز والعدمية أمام القدرة الإلهية المطلقة، فمرّة يثيره بحادثة الموت الذي ينتظر كل إنسان ويصرّح له بأن موته وحياته بيده ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[1].

وأخرى يوجّه نظره إلى الماء العذب الذي ينزل من السماء ليشربه هذا الإنسان ويبعث على الحياة ويتساءل عن المنزل له من طبقات الجو والسحاب، هل أنت أيها الإنسان أم انا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2].
وثالثة إلى النار التي يوقدها الإنسان ويستفيد منها فوائد جمة، فهل أنّه هو الذي خلق الوقود والخشب، أم الله تعالى؟ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾[3] ورابعة إلى الزرع والنبات و. . . الخ.

اما آيات «الطائفة الثانية» فالمتحدث ينطلق في حديثه مع الناس من موقع المنعم وصاحب الفضل والمنّة، وبعد أن يذكر مفردات مهمة من نعمه ومواهبه على أفراد البشر، يطالبهم في نهاية كل آية بالتفكر والتدبر في هذه المواهب ومصدرها وغاياتها، ففي الآية

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 60.
(2) سورة الواقعة، الآيتان: 68 - 69.
(3) سورة الواقعة، الآيتان: 71 - 72.

الأولى يدعي أنّه خلق الناس جميعاً من تراب، ولم يكتف بنعمة الخلق فحسب، بل ثنّاها بنعمة الزوجية وما يترتب على الزواج من تفعيل عناصر المودة والرحمة في دائرة العواطف الإنسانية، ثم ذكر أنّه خلق السموات والارض وما ينتج من ذلك من مواهب عظيمة للإنسان في حركة الحياة من ليل ونهار، ونوم ويقظه وسعي وحركة لنيل الفضل وتحصيل الرزق وما إلى ذلك...

فهل ياترى أن إنساناً مثل «محمد» ﷺ أو غير محمد ﷺ قد كتب في السابق، أو يخطر على ذهنه أن يكتب في اللاحق مثل هذه الادعاءات العظيمة وبهذا الأسلوب الرقيق الخالي من التكلف والتمحّل ومن دون أي شائبة من اللف والدوران والقفز فوق العبارات من موقع المكابرة والادعاء؟

ولقائل أن يقول: إن العقل لا يمانع في أن يفترض الشخص نفسه إلهاً ويتحدث مع الآخرين من موقع الالوهية كما يجري مثله في المسرحيات والافلام السينمائية.

ولكن هذا قياس مع الفارق، فهل وجد إنسان على وجه الأرض أو سيوجد في المستقبل يستطيع أن يتلبس بهذا الدور لمدة 23 سنة من دون أن يظهر للناس ولأقرب المقربين إليه أن هذا المدّعي انما يصطنع الكلمات في دائرة التمثيل والتخيل؟

عندما نقرأ القرآن من أوله إلى آخره نجد هذه «النغمة الإلهية» واضحة وجلية في سياق كل آية من آياته وعلى وتيرة واحدة، ولو كان من صياغة إنسان لتعثر السياق في ضوء متطلبات النفس وتحديات الواقع الممتد لفترة زمنية طويلة، ولنسي هذا الإنسان أنّه

يلعب دوراً تمثيلياً ويتعامل مع الناس من موقع المخادعة والمراوغة وخاصة بعد أن تستتب له الامور ويملك سدّة الحكم...

وهذه الوتيرة الواحدة في ملامح السياق القرآني هي التي يشير إليها القرآن الكريم في قوله تعالى:

... و﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

لا كما توهم المفسّرون من نفي الاختلاف في المحتوى والمضمون وجعلوا ذلك دليلاً آخر على إعجاز القرآن، وقد رأينا في الفصل السابق أن هذا الأدعاء لا يقوم على شيء وأن القرآن في ظاهره يحوي الكثير من الاختلاف بل التباين (لولا سلاح التأويل)، والصحيح هو ما ذكرنا من أن القرآن لو كان من البشر لوجد الناس فيه اختلافاً كثيراً وتشتت أكثر في اطار السياق الربوبي ونغمة الالوهية الحاكمة على جميع الآيات، فتارة يشبه كلام البشر، وأخرى يشبه كلام الرب.

فالتهافت يعود إلى نسبة هذا الكتاب إلى الله تعالى ادعاءاً، والّا فالكتاب البشري أيضاً قد يخلو من التهافت والاختلاف إذا كان لمؤلف واحد. بل قد يشترك عدة مؤلفين على تأليف كتاب أو مسرحية أو قصيدة، ولكن الجميع يشتركون في «النغمة البشرية» بينهم، ولذلك قد يتخلص نتاجهم من الاضطراب والتشويش والاختلاف، إلّا أن ذلك لا يعني صحة نسبته إلى الله تعالى، فكل من يقرأ ذلك الكتاب يلمس منه أنّه نتاج بشري خالص ولا يمكن لهذا الكلام أن يرتدي مسوح القداسة والالوهية، وهذا على عكس

(1) سورة النساء، الآية: 82.

ما هو المشاهد في القرآن، فالآيات الكريمة طافحة بـ«نغمة الالوهية» بحيث أن الله تعالى يتجلى لخلقه من خلال هذا الكتاب كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فتجلّى لهم سبحانه في كتابه»[1].

الطائفة الثالثة: المتكلم والفوقية القاهرة:

لنقرأ هذه الآيات من سورة القمر:

1 - ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

وهنا تلاحظ أن «نغمة الالوهية» ساطعة من سياق هذه الآيات الكريمة ولكنها هذه المرة بشكل آخر، وهو أن لحن الكلام يتخذ طابع الانتقام والبطش، والمتكلم هنا يظهر بمظهر القاهر المطلق الذى تتصاغر أمام قدرته قدرات البشر الموهومة، فاذا بعاد وفرعون والأقوام السالفة مع كل مدعياتهم وجبروتهم يصبحون كقشة في

(1) نهج البلاغة: الخطبة 145.

مهب الريح، وتضحى قدراتهم المزعومة وهماً متراكماً أمام القدرة الإلهية القهارة.

ولا نطيل، فالقرآن الكريم مليء بمثل هذه الخطابات العجيبة للنبي تارة، وللإنسان أخرى، وللمؤمنين بالخصوص ثالثة، وللكفار والمعاندين رابعة، وفي كل هذه الخطابات نجد أن المتكلم لا يمكن أن يكون النبي نفسه، لأن مثل هذا الكلام كأنه صادر من قلب الإنسان ووجدانه، وليس المتكلم شيئاً آخر غريب عن الإنسان وخارج ذاته، والحال أن أي متكلم من البشر لا يمكن أن يخاطب الآخرين إلّا من خارج ذواتهم، وهذا هو السرّ في ما يقال من حلاوة القرآن وتأثيره العجيب في النفوس، لأن المتكلم البشري مهما كان كلامه بليغاً ومؤثراً فان المخاطبين له محجوبون بحجاب الأنا والذات، ولا يمكن لذلك الخطاب أن يمرّ إلّا من قناة الأنا للمستمع، وحينئذ يفقد حلاوته وخاصة إذا كان مشحوناً بالأمر والنهي وإصدار التعليمات بلغة السلطنة والعلو، ولكن إذا كان صادراً من اعماق ذات الإنسان ولم يشعر الإنسان معه بأن صاحب هذا الكلام غريب عليه وأجنبي عنه بل هو وجدانه وروحه وذاته الحقيقية التي لا تريد له إلّا الخير والصلاح، فحينئذ يُقبل عليه بقلبه وبكل وجوده ومشاعره، فتكون لهذا الكلام حلاوة خاصة لا يمكن أن يوجد لها مثيل في الكتب والخطابات الأخرى.

هذا ما أردنا بيانه من هذا الوجه للمعجزة القرآنية، أي المعجزة المنسوبة إلى الله تعالى «المعجزة - إلى» لا انه معجزة منصوبة من الله «المعجزة - من».

أما مدرك النظرية فبالامكان الاستشهاد بالآيات والروايات لهذا الوجه الوجداني لمعجزة القرآن، فمن الآيات قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(1).

ومحلّ الشاهد في قوله تعالى «مفتريات» أي فأتوا بعشر سور مثله وانسبوها إلى الله تعالى حيث تدّعون أنّه جاء بهذا الكتاب وافتراه على الله تعالى، فعليكم أن تأتوا بمثله وتفتروه على الله حتى يتبيّن كتابكم المفترى هل يمكن أن يكون كهذا الكتاب؟ ولولا هذا المعنى المستفاد من الآية لكانت هذه الكلمة زائدة تماماً حيث يكفي أن يقول: «فاتوا بعشر سور مثله» في مقام التحدّي والتعجيز، ولكنه أضاف إليها «مفتريات»، وهذا يعني أنّه قد يكون بإمكانهم الإتيان بمثله أو أحسن منه من حيث البلاغة والفصاحة والقضايا العلمية وأخبار الماضين وما إلى ذلك، ولكن من المحال أن يأتوا بمثله وينسبونه أو يفترونه على الله وتكون هذه النسبة صحيحة ومقبولة لدى كل إنسان عاقل منصف.

والشاهد من الروايات قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

«فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه ليعلم العباد ربّهم إذْ جهلوه، وليُقرّوا به بعد اذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذْ أنكروه، فتجلّى لهم سبحانه في كتابه»(2).

(1) سورة هود، الآية: 13.
(2) نهج البلاغة: الخطبة 145.

ومثله ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون**»[1].

والشاهد هذه العبارة الأخيرة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث صرّح بأن الله تعالى تجلى للناس جميعاً من خلال كتابه الكريم، وكل مؤلف أو شاعر أو رسّام يتجلى لسائر الناس من خلال ما يصدر عنه من كتاب أو قصيدة أو رسم أو صنعة معينة، فالنبي مثلاً يتجلّى للمسلمين من خلال أحاديثه الشريفة، والإمام علي عليه السلام من خلال نهج البلاغة وهكذا، فمن يقرأ نهج البلاغة مثلاً يدور في ذهنه صورة الإمام علي وهو يخاطبه أو يخاطب الناس بهذا الكلام، ومن المحال أن يأتي شخص بكتاب بحيث يتجلّى الله تعالى من خلال كلماته مباشرة للقاريء دون المؤلف نفسه سوى القرآن الكريم. وهذا هو الإعجاز القرآني في صورته الصحيحة لا ما ذكر من الوجوه الاستحسانية الواهية.

وملاحظة أخيرة، أن هذا الوجه الجديد في الإعجاز القرآني يختلف عن سائر الوجوه المذكورة بأنه يرد القضية من رأسها لا من ذَنَبها، أي أننا بعد أن آمنا بأن هذا الكلام هو كلام الله تعالى آمنا بأنه معجزة، لأن كل مخلوقات الله معجزة بحد ذاته فكيف بكلامه؟! والحال أن تلك الوجوه المذكورة للمعجزة القرآنية تثبت أولاً أن هذا الكلام معجزة بحد ذاته ولا يستطيع أي إنسان أن يأتي بمثله، وحينئذ يثبت أنّه من الله تعالى لا من محمد صلى الله عليه وآله، وبالاصطلاح الفلسفي: من طريق «الإن» أما على الوجه المختار فهو من طريق «اللّم».

---

(1) بحار الانوار. ج 89 - ص 107.

وتتمثل الفائدة في هذا الفرق أن طريق الإن لا يمكنه إثبات أن هذا الكلام من الله حتماً، فغاية ما يثبته على فرض صحة الوجوه الاعجازية المذكورة أنّه ليس كلام بشر وانه ليس من محمد ﷺ، بل هو من قوة غيبية فوق مستوى البشر، أما هل هذه القوة الغيبية هي الملائكة أو الجنّ أو الله تعالى أو غير ذلك؟ فهذه الوجوه عاجزة عن تحديد المتكلم بالله تعالى، اما على الوجه المختار فنحن لا نواجه مشكلة من هذا القبيل، **فبعد أن ثبت بالوجدان أنّه كلام الله من خلال «نغمة الالوهية» نقول بأنه معجزة لا العكس.**

ومن هنا نفهم السرّ في احتجاج القرآن على المشركين بعدم وجود الاختلاف فيه وأنّه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

فالمقصود أن مثل هذا الكتاب بضميمة نسبته إلى الله تعالى لا يوجد فيه اختلاف من ناحية هذه النسبة، ولو كان من عند غير الله ونسبه المدّعي إلى الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً في صدق هذه النسبة، فبعضه يشبه كلام الله والبعض الآخر يشبه كلام البشر ولا يمكن أن يكون على وتيرة واحدة، لأن حبل الكذب قصير كما يقال.

---

(1) سورة النساء، الآية: 82.

النقد في دائرة العقيدة يعني تفكيك التّراث الديني إلى عناصره الأولية ليتسنى لنا إعادة صياغته بما يضمن لنا مواجهة التحديات الفكرية الراهنة بأدوات فاعلة تحكي رصانة المنهج وحقانية المعتقد.

وقد يستغل عنصر النقد من لا حريجة له في الدين ويسعى في هدم عرى الإيمان والدين وفق إطار تغريبي مدروس من شأنه تقويض البنى الفكرية للذهنية المسلمة، ولكن هل يكون ذلك مسوغًا لنا انتجمد في إطار معتقدات السلف ونظل نمارس عملة تغطية ثقافية وتعتيم فكري على ترسبات عقائدية لتبقى متعالية عن النقد الموضوعي.




ISBN 978-614-404-100-X
9 786144 041000